ذكر المسجد الجامع بغزنة

ولما عاد السلطان يمين الدولة وأمين الملة على هيئة النصر الموكل بقمع الكافر المفتري، المكلّل بسعدي السماء الزهرة والمشتري، إلى دار الملك بغزنة وقد كاد أن يغيض سيحها على عدد الأرقاء من العبيد والإماء، حتى استفرغت عليها أكياس التجار، الضاربين إليها عن نوازح الديار، ونوازع الأمصار، فحصّ ما وراء النهر إلى مرابع العراق، ومبادئ الإشراق. منها ما خلط بيضهم بالسود، وعدل في التمليك بين المسوّد والمسود، أحب أن ينفق ما أفاء الله عليه من أنفال أولئك الغلف الأغفال، في عمل برّ يشيع جدواه، ويريع إلى أمر الاحتساب معناه.

وكان قد أوعز باختطاط صعيد من ساحة غزنة للمسجد الجامع، إذ كان ما اختط قديما على قدر أهلها، حيث عدّت من زمعات البلاد شحوط دار، وشطون مزار.

فوافق عوده من مضربه حصول المراد من تقطيعه وتوسيعه، وإقامة الجدران على ترابيعه، فصبّ بدر المال على الصنّاع، كما صبّ دماء الأبطال يوم القراع. ونصب لمشارفتهم أحد الزعماء بحضرته، فهو يطوف عليهم مطالبا بصدق العمل، ومعاتبا على رمز الخلل.

حتى إذا توسّدت الشمس قلة الجبل، أقام ألسن الموازين ناطقة بالإنصاف، وازنة بالجزاف، فيمسون بين أجرين: عاجل على السلطان منقود، وآجل على الرحمن موعود.

ونقل إليه من أقطار الهند والسند جذوع توافقت قدودا ورصانة، وتناسبت تدويرا وثخانة. كأنها استودعت أرحام الأرض لأمر معلوم، وفجعت بأعمارها ليوم محتوم، فجاءت ولا الحق كمالا، والعدل استقامة واعتدالا. تثني عليها الملاسة والسداد، وكأن بها صمما فهي لا تصغي ولا تكاد.

وقد فرشت ساحته بالمرمر منقولا من كل فج عميق، ومضرب سحيق، على تقطيع التربيع أشد ملاسة من راحة الفتاة، وصفحة المرآة. وعقدت عند منتهى الأبصار، طاقات كما تقطع الدوائر على نقط المراكز، فلو عاش سنّمار لعدّ في جنبها معد الواهن العاجز. فأما الأصباغ، فطالع روضة الربيع ضاحكة الثغور، باكية الجفون، تستوقف الأبصار، وتقيّد النظار. وأما التذهيب، فحسبك منه أن صنّاع الرصافة قد عزّت عليهم الحقاق، وصحّ لهم تكليف ما لا يطاق، وليس بصفائح الزرياب فقط، لكنه ضبّات

الذهب الأحمر، أفرغت عن صور الأصنام المجذوذة، والبددة المأخوذة، فطفقت تعرض على النار، بعد أن كانت آلهة للكفار. وتضرب بالمطارق، بعد أن عبدت بالخدود والعنافق. أو ليس الذي ينفق على جدران مساجد الله عبرة للموحدين، وغيظا على الملحدين، أتم سماحة وأكرم راحة ممن يفرغه معبودا وينصبه للنفع والضرّ مقصودا؟! نعوذ بالله من رب شواره عار؛ وهو محتاج إلى شعار.

وجزى الله عن الإسلام ملكا هذه أفعاله وأعماله، وامتحان الروح في امتهان الممنوح في سبيل الله دأبه وآدابه.

نعم، وقد أفرد السلطان لخاصته بيتا في المسجد مشرفا عليه، مكعّب البناء، موسّع الفناء، متناسب الزوايا والأرجاء. فرشه وإزاره من الرخام، كدّت عليه الظهور، حتى نقل من أرض نيسابور. وقد أحيط بكل رخامة مربعة محراب من الذهب الأحمر مكحلا باللازورد، في تعاريج من ألوان المنثور والورد، من يرها بعينه يقل بلسانه لاستحسانه: لا زال هذا الأستاذ ممتعا ببنانه.

ألا من رأى مسجد دمشق، فراعه مرآه، وشاقه النظر حتى ثناه، وقضى بأن ليس يوجد شرواه، دونك هذا البيت يلزمك المثنوية، وتنعكس عليك القضية، وينبئك أن الحسن بعض صفاته، والإبداع أحد سماته، وأنفال الهند من خدم نقوشه، والهمة العلياء قد طمحت بعروشه.

نعم، وأمام هذا البيت مقصورة بتعاريج عليها منصوبة تسع ثلاثة آلاف غلام، متى شهدوا للفرض أخذوا أماكنهم منها صفوفا، وأقبلوا على انتظار الأذان عكوفا.

وأضيف إلى المسجد مدرسة فيحاء تشتمل بيوتها من بساط الأرض إلى مناط السقوف على تصانيف الأئمة الماضين، من علوم الأولين والآخرين، منقولة من خزائن الملوك الصيد، نقروا عن ديار العراق، ورباع الآفاق، حتى اقتنوها بخطوط كفرائد سموط، مصححة بشهادات التقييد، وعلامات التخفيف والتشديد. ينتابها فقهاء دار الملك

وعلماؤها للتدريس والنظر في علوم الدين، على كفاية ذوي الحاجة منهم. ما يهمّهم جراية وافرة، ومعيشة حاضرة. وقد اقتطع من دار الإمارة إلى البيت الموصوف طريق يفضي إليه في أمن من ابتذال العيون اللوامح، واعتراض الرجال من بين صالح

وطالح، فيركب إليه على وفور سكينة، وشمول طمأنينة، حتى يقضي المكتوبة، ويقتضي الأجر والمثوبة.

وأما سائر دور الحجّاب وقصور القواد، فما يثق بحقائق الإنفاق عليها إلا من أتاها اعتبارا، وشاهدها اختبارا، فيرى ملء الأباطح أبنية تشرف على الهضاب شرفاتها، وتكاد تغترف من نهر المجرّة غرفاتها. وناهيك من بلد يحتوي على مرابط ألف فيل يشغل كل منها- بساسته ومائرته - دارا كبيرة، وخطة وسيعة. إن الله تعالى إذا أراد، عمّر البلاد، وكثّر العباد، وهو على ما يشاء قدير.

obeikandl.com

ذكر الأفغانية

ولما قضى السلطان وغرة القيظ بغزنة، وأقبل الخريف بسفيفه، وسمح الوقت بحاضر ريفه، وقد كان طوائف من الأفغانية المستوطنين قلل تلك الجبال الشوامخ، والرعان البواذخ، تعرضوا فعل القطّاع لذنابى عسكره منصرفه من غزوة قنّوج، اغترارا بمناعة أماكنهم، وحصانة مساكنهم، أو تظنيا بخفاء أفعالهم، والتباسها بمناكير أمثالهم، رأى أن ينتقم منهم بركضة تبيح عليهم أوكارهم وملاجئهم، وتخضب بدماء النحور جآجئهم. فعزم على ما دبّر، وصمّم على ما قدّر، وورّى بنهضته إلى إحدى أقطار بيضته. ثم ركض عليهم في خاصته ركضا صبحهم في مراقدهم، فلم يشعروا إلا بحرّ الصفاح على برد الصباح، ضربا يقطف الرؤوس عن النحور، ويفرغ البحور على الحجور، كما قال أبو تمام الطائي[1]: [الكامل]

صرعى إلى صرعى كأن جلودهم طليت بها الشّيّان والعلّام

فيا لها نبهة أتمّت عليهم الرقود، وآلت حلفة أن لا تعود، أو تشهد اليوم الموعود. فكم من جثث فوق الأعلام، ورؤوس تحت الأقدام، حتى إذا استلحمت السيوف أجسامهم، ولم تستبق إلا أياماهم وأيتامهم، كفّ كفّ الاقتدار، وعلا ذروة العزّ بالانحدار. وعادت تلك الوعور سهولا، وكان أمر الله مفعولا.

وعطف إلى غزنة مميلا الرأي بين أن يشتو ببلخ مستجما، ولغابر السنة بالقرار مستتما، وبين أن يركب نية يمينية في غزوة تقشع باقي ضبابات الكنود، عن ديار الهنود، مجهزا على من كان يضرب بذنبه في مهربه كالوزغة المثخنة لا تلبث أن تموت، فأبت عليه حمية الإسلام أن يسيغ على القعود جريضه، أو يستبقي في محابس الأغماد بيضه. وثنى عنانه نحو الهند في رجال يرون منتهى الشهوات صهوات الخيول، وقصوى اللذات ملاقاة الفحول، ويجتزئون بالظهور أسرّة مرفوعة، وبالأكوار وسائد موضوعة، وبالسموم رياحين مقطوفة، وبالآجن الطّرق صهباء موصوفة، وبالعرق السائل ماء ورد، وبالقسطل الثائر مثار عنبر وفتات ندّ، وبالليل سكنا وقرارا، وبالنجوم ندامى وسمّارا. فمن ينمه نسب فإن آباءهم المشرفيات بواتك، وأمهاتهم الزاعبيات فواتك، وأعمامهم القسي جوازع، وأخوالهم النبال قوازع. ومازال يخوض أنهارا هائجة، وبحورا مائجة،

(١) انظر: الديوان ١/١٧١.

وأودية هادية، لم تضمن قط عن غرقاها دية. وعين الله ترعاه، في كل سعي يسعاه، حتى اقتحم مغارات أولئك المغاوير، بل ديارات أولئك المدابير؛ فظلت رذايا الفلّ يضجّون بالويل والثبور، ضجيج النوق رواجع بيت الله ومازال السلطان يصفح عمن آمن وأطاع، ويفضح من أظهر الامتناع، بعد أن أصاب غنائم لا يضبطها حساب، ولا يطعمها ماء ولا تراب، حتى انتهى به المسير إلى ماء يعرف بـ(راهب) غائر المخاض، حميء القرارة كالخضخاض، يبلتع الخف والحافر، ويقتلع الدارع كما يقتلع الحاسر، فإذا ببروچيبال من تلك الجيزة في رجال كالصريم، وأفيال تحت الأديم، و قد أخذ من فاجيء الركضة حذره، وأسند إلى زاخر النهر ظهره. ورام أن يمنع السلطان عبوره، ويشغل عن اقتحام الغمر جمهوره، حتى إذا اكتحل الليل بقاره، مرّ في ذمّة أستاره، مرور مروان على حماره. فلما علم السلطان ذلك من قصده، ورأى استعداده واحتشاده لصدّه، أمر بالأطواف فهيئت للعبور، وأهاب بعدّة من غلمانه للركوب، فامتثل الأمر ثمانية منهم يبتدرون العدوة القصوى، ويلتزمون كلمة التقوى، فلما رأى بروچيبال استقلال الماء بهم، رماهم بخمسة من فيلته المجففة، وفوج من رجاله المصففة، فأراد الله تعالى أن يحقق قول نبيه الأمي الأمين، ورسوله المؤيد بالتمكين حيث قال صلى الله عليه وسلم: «زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها». فألهم تلك العدة أن استوقفوها على أماكنها خرزا لأطراف هاتيك الأخفاف بالنبال، وغرزا لها بعد في وجنات أولئك الضلّال، معجزة لم يسمع بمثلها قبلها. ثمانية تجزع سيلا، وتدفع فيلة وخيلا.

وبدر من لفظ السلطان، عند عيان ذلك البرهان، أن قال: من قدر على السباحة فليتعب اليوم للراحة، فإذا بخاصته ومعظم عامته خائضين، ولصعب الماء رائضين، فتارة يسبحون بالأطواف، وأخرى يستريحون إلى الأعراف، حتى لفظهم النهر سالمين، لم تشجب لهم جنيبة، ولم تعطب لهم حريبة، ولم تذهب- بحمد الله- سبيبة.

وحمل السلطان بهم وقد نزوا إلى الظهور، حملة توزعتهم بين عقير سكران من عقار الحدود، وأسير حيران من أسر القدود، وطريد يخاف وقع القواضب، وقتيل بمرأى النجوم الثواقب، وصار ما حصل في الوقعة من عدد الفيلة مائتين وسبعين، ثقال الأجسام كثقال الغمام. وطار الكافر هزيما، لا يملك عزيما، ولا يقدر تأخيرا وتقديما.

وقد كان السلطان قبل أن لقي الكافر، ولبس جيوشه الدروع والمغافر، أخذ فألا من كتاب الله تعالى يهديه عاقبة ما ينويه، فخرج له قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٩]. فلما حقق الله وعده، ونصره بفضله وحده، ضمن على نفسه أن يفي بواجب عمله عدلا يرفّه الأنام، وغزوا يؤيد الإسلام، وشكرا يقيد الأنعام. لا جرم أن الله حافظه وحاميه، ومصيب به أغراض آماله وأمانيه، والذي يدّخره له من ثواب المعاد أربح مقادير، وأرجح مكاييل ومعايير.

obeikandl.com

ذكر الأستاذ أبي بكر محمد بن إسحاق بن محمشاذ[١]، والقاضي أبي العلاء صاعد بن محمد[٢] وما انتهى إليه أمرهما بنيسابور

قد كان أبو بكر مرموقًا بعين النباهة في صدر هذه الدولة، لمكانة أبيه من الزهادة، وضمه الأطراف على العبادة، واقتفائه نهج أبيه فيما كان ينتحله وينتحيه. وكان الأمير ناصر الدين سبكتكين يرى من عصابته في التزهد والتعفف، والترهب والتقشف ما قلّ وجود مثله في كثير من فقهاء الدين، وأعيان المتعبدين، فحلى ذلك في قلبه كما حلى بعينه، والمجاهد في الله محبوب، وقد يكرم أهل الشفاعات من له ذنوب. واستمر السلطان بعده على وتيرته في ملاحظتهم بعين الاحترام، وإيثار طوائف الكرّامية بالإكرام، حتى قال أبو الفتح البستي فيما شاهده من نفاق أسواقهم[٣]:

الفقــهُ فقــهُ أبــي حنيفــةَ وحــده والــدينُ ديــنُ محمــدِ بــنِ كِــرَامِ
إن الــذين أراهــم لــم يؤمنــوا بمحمــد بــن كــرام غيــر كــرام

وانضاف إلى هذه الوسيلة القوية، والذريعة الإلهية، أنه لما تورّد جيوش الخانيّة خراسان، عند غزو السلطان ناحية الملتان، قبضوا بنيسابور على أبي بكر احتياطا لأنفسهم من شيعته، واحتراسا من غامض مكيدته، ونقلوه في جملتهم حين طلعت رايات السلطان من مغاربها، وأومضت سيوف الحق عن مضاربها، إلى أن وجد فيهم

---

(١) أبو بكر محمد بن إسحاق بن محمشاذ: الزاهد بن الزاهد بن الزاهد، زعيم أصحاب أبي عبد الله ورئيسهم صاحب القول في وقته عند السلطان؛ كان مقربا عند الأمير أمين الدولة محمود، دعا إلى السّنة وهدم المسجد الجديد الذي بناه الروافض وظهرت به دولة الكرامية واعتمده محمود في بناء الرباط بمرحلة (بنيسابور) قائمة على طريق سرخس. عقد له مجلس الإملاء بشط الوادي سنة ٤٠٥. واستملى عليه الحسكاني وبعده أبو عمر بن يحيى. وكان في الارتفاع إلى أن توفي في شوال ٢/٤٢١ أكتوبر ١٠٣٠. [انظر: المنتخب من السياق ص: ٢٢-٣ رقم: ١٣]

(٢) صاعد بن محمد بن أحمد، أبو العلاء، عماد الاسلام: فقيه حنفي. نسبته إلى أستواء (قرية بنيسابور) ولي قضاء نيسابور مدة، وتوفي بها. وانتهت إليه رياسة الحنفية بخراسان، في زمانه. له كتاب (الاعتقاد).

انظر ترجمته في: الفوائد البهية ٨٣ وتاريخ بغداد ٩: ٣٤٤ والجواهر المضية ١/ ١٦١.

(٣) انظر: توضيح الأفكار ٢/٨٣، والنكت الوفية ١/٥٦٣.

فرصة الإفلات، والسلامة على مسّ تلك الآفات، فاعتدّ السلطان ذلك له في سائر مواتّه، وأوجب له حقا يلحظه بعين مراعاته.

ونبغت من أرباب البدع الباطنية- على ما تنامست به البلاغات، والله أعلم بما تجنه الضمائر والنيّات- فئام وافقت تصلبا من السلطان في استئصالهم، وتعصبا لدين الله تعالى في احتناك أمثالهم، فحشروا من أطراف البلاد، وصلبوا عبرة للعباد.

وكان أبو بكر أحد أعوان السلطان على رأيه حشرا إليه، وتصويبا للرأي عليه، فصار البرىء كالسقيم مذعورا، وعاد الملأ في عارض الخطب شورى. ورأى الناس أن ريقته السم القاتل، ومدته السيف القاصل، فبخعوا له بالطاعة، وفرشوا له خدود الضراعة.

وانعقدت له الرئاسة في لبسة الصوف. ولحظته الخاصة والعامة بعين المرجو والمخوف، ووجدت خاصته سوقا للأطماع بعلة الابتداع، فاستزبنوا الناس، واستفتحوا الأكياس، فمن ألطّ منهم بمكّاس رمي بفساد معتقده، أو يعطي الجزية عن يده.

و غبرت على هذه الجملة سنون، لا مطمع لأحد في تبديل شكلها، وتحويل فادح الحال عن أهلها، ولا علم بأن الزمان بتغيير الأحوال ضمين، وبالخلاف على صورة المعتاد رهين، ومن صبر على الأيام رأى الرفيع وضيعا، والضليع ضريعا، وشاهد عن سموم القيظ صرّا كالحا وصقيعا.

واتفق للقاضي أبي العلاء صاعد بن محمد أن حجّ بيت الله الحرام سنة اثنتين وأربعمائة، وهو الإمام المرموق، والزاهد الموموق، والفاضل الجزل، والبازل الفحل. قضى أكثر العمر على الحظ النفيس، من ثمر الدرس والتدريس، تتطفل عليه الأعمال فيأباها، وتصبّ إليه الأعراض فيرى الخيار فيما عداها. ومن حاز شرف العلم لم يشتر به ثمنا قليلا، ولم يعدل به حظا وإن كان جليلا. فلما حصل بدار السلام، وأنهي إلى القادر بالله أمير المؤمنين خبره في حجيج بيت الله الحرام، قوبل بمقتضى حقه في الإسلام، من واجب الإثرة والإكرام، وظاهر التوقير والإعظام. وعضد بالكتاب إلى السلطان فيما تقرر من حاله، وفي مهمات أوجب الاحتياط شرحها على لسان مقاله. فلما عاد من وجهه، شخص إلى حضرة السلطان بغزنة، فعرض ما صحبه، وقرر ما تحمله، وأدّى من حق الأمانة ما لزمه، وبها الأستاذ أبو بكر محمد بن إسحاق، فجرى في مجلسه ذكر الكرّامية، وإطلاقهم القول بالتجسيم، وتعريض الله تعالى لما لا يليق

بذاته الكريم، فأنف السلطان لهذه الشنعاء من مقالهم، والعوراء من فحوى جدالهم. ودعا أبا بكر سائلا عنه، وباحثا صورة الحال منه، فأنكر اعتقاد ما نسب إليه، وأظهر البراءة مما أحيل به عليه، فسلم مع الإنكار عن مسّ العتب والإنكار، فأما الباقون فإن الكتب نفذت إلى العمال في تقديم الاستقصاء عليهم، فمن أظهر البراءة من قوله الشنيع، واعتقاده الموجب للتبديع، ترك وشأنه من عقد المجالس للتدريس، وتشرّف المنابر للتذكير. ومن أصرّ على دعواه، ولم يختر لنفسه سواه، جعل مغناه عليه حصيرا، وردّ لسانه دون الفضول قصيرا.

وخلع السلطان على القاضي خلعة لاقت بجلالة قدره، وزخارة بحره، ورعاية أمير المؤمنين لحقه، وإيعازه بتمهيد أمره. وصرف كلا منهما على جملة الاستئناس، والتفخيم على أعين الناس.

ولم تزل غصّة القول بالتجسيم ناشبة في صدر أبي بكر، يصارع الأيام على نهزة المكافأة بها، إلى أن استتب له الأمر في عقد محضر على انتحاله مذهب الاعتزال، وتنجّز خطوط قوم من الأعيان سلكوا فيه طريق المساعدة، وتنفّسوا به عن وغرة المنافسة، فغيظ ما لا يطاق داء دخيل، وهمّ على سر النفوس نزيل.

واحتيل في عرض المحضر على السلطان استفسادا لصورته لديه، فوقع التدبير موقعه من الإحفاظ عليه، ورأى السلطان أن يبحث عن صورة المرفوع في إحقاق من صوّر، وإبطال من زوّر؛ فأنهض قاضي قضاته و واحد ثقاته أبا محمد الناصحي، من لم يشركه أحد في اصطناعه، والجذب إلى العلياء بباعه، فإنه استخصّه على طراءة شبابه لخلّتين قلّما توجدان في قرّح الأسنان، فضلا عن أحداث الفتيان والشبان، وهما العلم والورع أخوان، دونهما الدرّ بالياقوت، والصحة بكفاف القوت.

وأقعده بغزنة- دار الملك- للتدريس والفتوى، وإصباح الناس من ساطع نوره في التقوى، حتى إذا بهر كماله، وطفح بالفضل مكياله، ولّاه القضاء على القضاة في عامة ديار ممالكه، ثقة بقوته وأمانته، وورعه ونزاهته؛ فتولاه بنفس كصفحة الشمس نقاء وروضة الحزن ديّمتها السماء عشاء. وأمره بأن يستحضر القاضي أبا العلاء صاعدا، وأبا بكر الأستاذ في وجوه الرتوت، وأعيان الشهود، ويطالب بإقامة الشهادة على الدعوى المذكورة على رؤوس الملأ من غير محاشاة، أو جنوح إلى مداهنة ومحاباة؛ فقابل الأمر

بالامتثال، وتجافى عن حرمة العلم لحشمة الملك وهيبة الجلال، وسأل أرباب الخطوط عما عندهم من قضية الحال، وجلية المقال، فأما أبو بكر فإنه أراد أن يتلافى باقي الخطب، فزعم أن الاشتراك في رتبة العلم أحدث بينهما منافسة تنازعا معها مذهبي التجسيم والاعتزال، فلا صحّ ما نسبني إليه، ولا تقرر ما ادعيته عليه. وأما الآخرون فمن جار على حكم المساعدة، في المحاباة والمهاودة، ومن حادر لثام الاحتشام في التصريح، وإطلاق الدعوى باللفظ الفصيح، مكاشفة عدّت الشهادة إلى التعصب، وجاوزت حدّ المعلوم إلى التغضب. وسيء- لذلك- وجوه أهل الرأي حتى كادت تثور فتنة لو لا أن هيبة السلطان أجرت الألسن الطوال، وضربت على النفوس التطامن والانخزال. وتلطف قاضي القضاة لعرض الحال، وتقرير صورة المحال.

واتفق أن تحيّن الأمير أبو المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين في مجلس السلطان فرصة القول في باب القاضي أبي العلاء، فنبّه على سمته وسيماه، وأنبه عن ورعه وتقواه، والتمس على سبيل التلطف أن يقع تلاف للغضاضة به، وتدارك المهانة الطارئة عليه، بعرك من تصدّى لمكاشفته، وتعرض لاستفساد مكانته. فوثق به السلطان فيما قال، وحدس أن صاعدا أجلّ من أن يعتقد الاعتزال، وأمر بإشخاص من انتدب لمراغمته، ومقابلته بما اقتضاه حكم وقاحته. واستحلس القاضي قرارة بيته، فلم يكن يبرز إلا لفرض يقضيه، أو علم يمليه، مجتزئا بالله تعالى جدّه عن غيره، ومقتنعا بما أدرّه عليه من خيره. ورأى أن بقية العمر أعزّ من أن تضاع على القيل والقال، وخدمة فضول الآمال، ومزاولة ما يصم قدر العلم بالابتذال، واستناب ولدين له كالفرقدين، أو الشّعريين، أبا الحسن وأبا سعيد شريكي عنان في المروءة والفتوة، ورضيعي لبان في أوامر النبوة، وأحكام آيات الله المتلوّة، في قضاء المواجب، واحتمال النوائب، فعفي له عن حقوق الناس، وفرغ لعلم النظر والقياس، وحظي بمثل ما أنبأ عنه أبو الفتح علي بن محمد البستي من حاله بقوله:

قد جمع الله أربعا لي ... فيهن عزي وحسن حالي
بلاغ علم، مساغ شرب، ... رفاغ عيش، فراغ بال

نعم، وأطلق تمادي الأيام على نباهة أبي بكر وارتفاع مكانته، واتساع حشمته ومهابته، وانبساط أيدي حاشيته في أموال وأعراض أهل ناحيته، واستمرار العناد بينه

وبين أعيان الأشراف في جيرته، ألسن الجمهور بحضرة السلطان بما طغى من حاله، وبغى من جرح خباله، إدلالا بأفاعيله، واعتمادا بزعمه على ما سبق العلم به من خلوص ضميره، ورشاد سبيله؛ فتداركه الاحتمال مدة من الزمان مديدة، محافظة على الصنيعة من الانتزاع، والعارفة من الارتجاع، وإبقاء على المحل المرموق في الله من أن يلمّ به انحطاط، أو ينحلّ له رباط، حتى إذا جاوز الاحتمال حدّه، وامتنع المستزاد بعده، عقد السلطان رئاسة نيسابور لأبي علي الحسن بن محمد بن العباس، وقد كان جده في دولة آل سامان مجدودا، وفي جملة الأعيان والتناء معدودا، وأثره فيما بين آثار الرجال محمودا. ووافق أبوه أيام السلطان أول مقدمه خراسان، وانتصابه منصب أصحاب الجيوش بها لآل سامان، فانجبل خلقاهما على مناسبة الشباب، وعرف السلطان له حق الخدمة والاصطحاب، غير أنه اعتبط في شبابه فعاد كما بدأ، وكل امرىء يوما مداه إلى الردى.

وكان يضرب أبا نصر أحمد بن ميكال بقرابة، وأواصر مستجابة، فنشأ في جملته نشأة المقبل، وخرج خروج القدح قدح ابن مقبل، وأحدث له شكر النعمة حشمة، وصفو الخدمة أدبا وهمّة. فلما مضى أبو نصر لسبيله، أنهي إلى السلطان حاله في كيسه وذلاقته، وظرفه ولباقته، فاستحضره ليخبره؛ فوافق أولى النظرة قبولا، وطرفا بمرود الإعجاب مكحولا. وازداد على طول الخبرة وفاقا، وعلى سوق الخدمة نفاقا؛ فنما نموّ الأشاء أصلحها التدبير، ولقّحها التأبير والماء النمير، حتى سمت به المراتب، وتوجهت إليه الرغبات والرغائب، وقابلت حشمته حشمة أرباب الجنود، وسادات الأقلام والحدود.

وكان غرض السلطان في عقد الرئاسة له أن يقمع به من انعقدت له بدالّة التألّه والتعبّد، وسابقة الترهّب والتزهّد، فقدّر أن الذي حظي به معقود بالدين، فلا سبيل إلى حلّه، ولا محاق أبدا لمستهله. ويرجع به إلى ما يوجبه حكم التقيّة، من رفض المراتب العليّة، والمطامع الدنيوية. فلما وردها ساس أهلها سياسة لو عاش إليها زياد لعاد إلى سياسته بعين استزادته، فخفت عليه حتى صرير الجنادب، وسكن حتى دبيب العقارب، وهدأ حتى شغب المراتب، وسكت حتى دوي المذاهب، وكأنما أقبل به شفيف الشتاء،

فلكل سامّة أو هامة في الوجار انجحار، وبالمغار استتار، وكأن القائل عناه بقوله[1]: [الطويل]

وقـد بَـثَّ عَبـدُ اللهِ خَـوفَ اِنتِقامِـهِ عَلـى اللَيـلِ حَتّـى مـا تَـدِبُّ عَقارِبُـه

ها إن هيبة السلطان هي التي خطمت اللهاميم، وحطمت الأقاليم. فلو وكل بعض همّه برواسي الجبال لأصبحت منسوفة، أو بطوامي البحار لعادت منزوفة، فما خطر خطة يتيه بها عن الرشد تائه، ويعمى عندها عن قصد الصواب نبه أو نابه، ومن أحسن في جنب مثاله فعن عون القدر، وحكم الفلك الدوّار على البشر، أبى الله أن يحمد على دحر المريد شهاب، أو يمدح على سقي المحول ذهاب.

وتطرّف الرئيس حواشي المقصود ينتزع منهم بعض ما أخذوه رشى، واحتسوه ثروبا وكشى. ثم نقلهم إلى بعض القلاع عبرة لمن أكل بالله، وأظهر الزهد في الدنيا ثم لم يتوكل على الله. وهمّ بصاحبهم فأخذ حذره، وأرخى من دونه ستره، ولم يقصد السلطان قصد استئصاله، ونفضه عن فضول ماله؛ فترك من وراء الحجاب على قدم الزهادة، وغصص الفطام عن شرف العادة.

وعطف من بعد إلى جماعة الأشراف العلوية، ذوي الأقدار العلية، فأشعرهم أن حشمتهم بالطاعة موصولة، وحرمتهم بلزوم القصد وترك تعدي الحدّ مكفولة؛ فتلقوه بالإجلال، وقابلوا أمره بالامتثال، علما بأنه ظلّ الله في أرضه، فما يغني عنه غير الانقياد، والميل على الغلوّ للاقتصاد.

واستخلف على الرئاسة عند الشخوص إلى الحضرة أبا نصر منصور بن رامش وهو يضربه بقرابة أبى السلطان إلا قطعها عليه صيانة له من تعبير الكرام، وتثريب الرجال عند ذكر الأرحام. وطوّع له قياد الأحرار، والأشراف الكبار، وألزمهم أن يخدموه بكرة وأصيلا، ويختصّوا بطاعته جملة وتفصيلا. فمن ورم أنفه دون طاعته- شريفا كان أو مشروفا- نفي عن بلده، وعري عما تحت يده. فشخصت إليه الأعناق، وأحدقت بفنائه الأحداق. واستتب له رئاسة لا عهد لأحد بمثلها من رؤساء خراسان إلا أبا عبد الله العصمي، فإنه بلغ مثلها، ولكن على عمر مديد، وعز عتيد، وبأس شديد، وخدم وعبيد، ومال ينادي على العفاة هل من مزيد.

---

(١) البيت لأبي تمام، انظر: جوهر الكنز ١/١٤٦، والحماسة المغربية ١/٦٩.

وفرش في زمانه بساط العدل، ونشر في أيامه رايات الفضل، فقواعد الأحفاش كرجالات الثروة والرياش، اشتراكا في الإنصاف. ونفقت سوق الاحتساب بالدرر فوق الأكتاف، فمن بدعة مرفوضة، ورتبة، مخفوضة، وحدود على الحق مقامة، وعيون على الفضول منامة. وبطلت معها الحانات والمواخير، وخرست العيدان والمزامير، وركدت ألحان النائحات والسكارى، واستوت في الانجحار واللياذ بما وراء الأستار عون النساء والعذارى. فأما شوارع أسواق البلد فقد كانت منذ بنيت نيسابور فضاء لا يكنّها غطاء، ولا يظلها دون السماء سماء، تخرقها الأعاصير مرّة، وتردغها الأهاضيب أخرى. فأما التراب مثارا، وأما الأنداء ثلوجا وأمطارا. لم يفطن أحد من ملوك خراسان وأصحاب الجيوش بها لإلحاقها بأخواتها من ديار خراسان تسقيفا لها وتستيرا، وتنظيفا عن الأقذاء وتطهيرا، حتى ورد الرئيس أبو علي فطالب أهلها به، فلم يمض شهران حتى سمقت نحو السّماك سقوفها، وقامت على ركائز الأعواد حروفها، فمن بين منقّش ومزخرف، ومدبّج بالأصباغ ومفوّف، تنفتح منها فرج بقدر ما يملي ضياء النهار على الأبصار، دونما يوسع لذرور الغبار، ويمكن لدرور القطار. وخمّن البصراء استغراق قدر العمارة مائة ألف دينار، عن طيب النفوس، وفضل الكيوس لم يكلف أحد عليها، ولم يستكره دون المثال فيها، بل عمّتهم المباهاة، وشملتهم المباراة، فأنفقوا موفرين ومستبصرين، ولأنفسهم على العجز دون المراد مستقصرين، فمن تسوّق تاسعا أو عاشرا ليس بادئا أو ثانيا، ردّ إلى الكاهل قذاله، وترك على شغل النظر أشغاله، فيالها من سمك شاخص نحو السّماك، وزائد فلكا ثامنا على الأفلاك.

ولما عاد الرئيس إلى الحضرة، وقرّر حال ما تولّاه، ومن عزله وولّاه، وافق هوى السلطان ورضاه، فصادف تقريرا وتمكينا، وإحمادا واسعا مستبينا. وسنورد شرح ما يتجدد من هذه الأحوال إن شاء الله تعالى ويسّره.

ذكر الأمير صاحب الجيش
أبي المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين

قد كان السلطان يمين الدولة وأمين الملة لما ملك خراسان، وأخلاها من شرذمة آل سامان، عرف له موالاته إيّاه، وهجرته فيها إسماعيل بن ناصر الدين أخاه، إعظاما لحق الكبر، واعترافا بواجب الفرض، فولّاه نيسابور مظنّة أصحاب الجيوش الأكابر، على وجه الزمان الغابر، سادّا به مكانه من قبل إذ هو سائس الجمهور، ومدبر هاتيك الأمور. ومن وضع أخاه موضعا قد سدّه قبل بنفسه، ورآه أهلا لبعض قدره، فقد بالغ في البرّ والتوقير، وخرج من عهدة التقصير؛ فوليها سنين عدة حميد السيرة في الخيرة، كريم الفعال في سياسة الرجال.

وجرى على يده من حميد الآثار في مطاردة أبي إبراهيم المنتصر عند ركضاته، وكفاية ما كان يطرأ من معرّته وشذاته ما تقدم شرحه، ثم رأى السلطان بعد ذلك أن يجمع به شمله، ويصل بمشاهدته حبله؛ فاستدعاه وأهّل به مستجمّه ومغزاه.

فلم يزايله بعد بحال، ولم يفاصله في حالتي حلّ وترحال. وكان يراه في مقاماته أول من يسمح بروحه في المحاماة على دين الله، والمراماة من دون حق الله، وواقيا أثناءها بمهجته نفسه إن كثف زحام، أو عظم على جيوش حق الله استلحام، شفقة تجيش بها لحمة القربى، وشجنة من الرّحم الدنيا. وكان ينصر مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله اعتقادا، ويرى الاستمساك به رشادا، فأمر بمدرسة بنيسابور في جوار القاضي صاعد بن محمد، وأنفق مالا حتى ابتناها، وحبس حبائس على من أواها، ودارس بأمالي العلم في ذراها؛ فبقيت تذكرة عنه تغدى بالعلم وتراح، ويثنى عليه الإمساء والإصباح.

ولم ينقم السلطان منه طول أيامه قولا محالا، ولفظا دون الصواب مستحالا، ولا شكا أحد من الكبار له جانبا، وفعالا لإشفاق الرؤوس على الأتباع مجانبا.

وقضى الله أن خانه الشباب، ولما استوفى أمده، ونفض بباقي الأمل فيه يده، فلحق بالواحد الغفار، إن الكرام قليلة الأعمار. وكتبت في مرثيته رسالة سئلت إثباتها في ذكره ففعلت، إذ كان في ضمنها ما يفي بشرح حاله، وتقرير بعض خصاله. وهي[1]: [الخفيف]

---

(١) انظر: أشعار أولاد الخلفاء ١/٩٧.

آهِ مِـــنْ سَـــفْرَةٍ بِغَيـــرِ إِيـــابِ   آه مـــن حســـرة علـــى الأحبـــاب
آه مـن مضـجع الأميـر المفـدى   فَـوْقَ فَـرْشٍ مِـنْ اْلحَصَـى وَالتـرَّابِ
نصـــر بـــن الأميـــر ناصـــر ديـــن   الله صـــدر الحـــروب والمحـــراب
صـاحب الجـيش درة الشـرق تـاج   الفخـــر غـــوث الكـــرام والكتّـــاب

نعاء يا ساسة الرجال، يا سادة الفعال، يا أعيان العلوم، يا إخوان النجوم، يا شيوخ الإسلام، يا عيون الكرام، يا أحرار الزمان، يا أنصار السلطان.

[من المتقارب(١):]

نعـــاء إلـــى كـــل حـــي نعـــاء   فتـــى الكـــرم احتـــل ربـــع الفنـــاء

أتدرون أي ركن انهدم، وأي حد انثلم، وأي عقد انفصم، وأي سوار انقصم، وأي روض ذبل، وأي نجم أفل، وأي بحر نضب، وأي طود تحصب، وأي خطب نزل، وأي نصر رحل؟ رحل والله نصر ابن الأمير الجليل ناصر الدين، الأمير ابن الأمير، والشهاب ابن الأثير، والبحر ابن الصبير، والحبر ابن النحرير، والعنبر ابن العبير. مرخ الملك و عفاره، وسور الدين وسواره، وركن العز وغراره، ونور المجد وعراره.

وغارت به بحيرة الأدب التي استعذبتها الشفاه، وضلت قبلة العلم التي وليت شطرها الجباه، وعريت دوحة الكرم التي خبطتها العفاة، وجفت طينة الفضل التي خدمتها الكفاة، وطلقت كريمة البرّ التي درس عليها التوحيد، وغذي بها اليافع والوليد، وأحييت عليها فواصل النهار، وحليت بها عواطل الأسحار، وأقشعت سماء شام أبناء الدين بوارقها، وخاف أحزاب الكفر والجحود صواعقها، فلا نار ولا ماء، ولا خوف ولا رجاء؛ فأضحى به جيب الزمان مشقوقا، وسكر الحدثان مبثوقا، وبناء العزّ منقوضا ولواء المجد مخفوضا، ودمع الدين مسفوحا، وطرف الإسلام مجروحا.

وأقبل العلم في صورة المفجوع، وبزة الخشوع، يقرمط خطوه، وينفث إلى أهله شكوه، مغرقا في صعداء تذوب لها جوامد الدموع، وتنفكّ عليها لواحك الضلوع:

فلـــو غيـــر المنـــون أتـــاه أهـــوى   إليـــه أخـــوه بـــالبيض البـــواتر

---

(١) مطلع قصيدة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي من قصيدة يرثي بها خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني.

انظر: الديوان ٤١٢/١، ومعاهد التنصيص ١٥٢/٢.

يمين الدولة الملك المرجّى ... صباح الدين مصباح المفاخر
ولكن القضاء له مضاء ... تذل لعز مضربه المناخر

ألا يا صاحبيّ سمعكما إليّ إن كنتما مسعدين، وجامعين إليّ كلتا اليدين[1]: [الطويل]

ألمّا على نصر وقولا لقبره ... سقتك الغوادي مربعا ثم مربعا
فيا قبر نصر أنت أول حفرة ... من الأرض خطّت للسماحة مضجعا
و يا قبر نصر كيف واريت جوده ... وقد كان منه البر والبحر مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت ... ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا
فتى عيش في معروفه بعد موته ... كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
بكى الجود لما مات نصر فلم يدع ... لعينيه لما أن بكى الجود مدمعا
ولما مضى نصر مضى الجود وانقضى ... وأصبح عرنين السماحة أجدعا

لئن جاز للموت أن يغصب الأمير نصرا، لقد ساغ لي أن أغصبها معنا، وأين معن من شقيق ملك الشرق؟! وسائس جمهور الخلق؟! والقاعد من قمة الفرقدين على الفرق؟! سلطان الزمان يمين الدولة وأمين الملة، من دانت لعزه القروم، واستكانت لهيبته الترك والروم، ففي بعض خصاله ألف معنى لم يرق إليه معن بهمته، ولم يلق له ذكر في ديوان نعمته.

نال حظوة من سلطان زمانه باتفاق، إذا الحرب قامت على ساق، ودارت كؤوسها بين حاس وساق. وقد فضح ابن بنان في جوده، وفضله بالسخاء عن موجوده، ثم لم يعترض له قط صيانة لفعاله، ولم يقترف عليه من بعد ذهابا بعزّ حاله وجماله. ها إن الأمير نصرا ورث العزّ أباه، ولم يخدم مدى العمر إلا أخاه، ولم يثنه غير فراغ الأكياس

---

(١) الأبيات للحسين بن مطير الأسدي، انظر: زهر الآداب وثمر الألباب (١ / ٣٣٣) والحماسة البصرية (١ / ٨٦) والكشكول (١ / ٣٦٩) وحياة الحيوان الكبرى (٢ / ١٩٠) ونهاية الأرب في فنون الأدب (٢ / ٨٨) ومعجم الأدباء (٤٢٩/١) وشرح ديوان الحماسة (٢٩٠/١).

الحسين بن مطير الأسدي: (١٦٩ هـ /٧٨٥ م): هو الحسين بن مطير بن مكمل الأسدي.

شاعر متقدم في القصيد والرجز، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. له أماديح في رجالهما. وكان زيه وكلامه كزي أهل البادية وكلامهم. وفد على معن بن زائدة لما ولي اليمن، فمدحه. ولما مات معن رثاه.

obeikandi.com

عن شغل المواهب، وفلول الأسياف عن قراع الكتائب، وقطيعة الدنيا في صلة الرحم، وعصيان الهوى في طاعة السلطان ولي النعم.

نشأ بين القرآن والتفسير، والإيمان والتذكير، والعلم بالصلاة والصيام، والفرق بين الحلال والحرام. وسخّر الورى بطرف العنان، وسنّ العلى بحد السنان. قد اقتسمت أيامه شرائط السلم باسمة الثغور، أو الحرب ظاهرة البسور، فأما المغافر والبواتر، وأما المحابر والدفاتر، وأما المحاضر والمنابر، وأما القماطر والمساطر، فيوما في جحيم الغضب، ويوما في نعيم الأدب، ويوما بين ظلال السيوف، ويوما بين معاني الحروف.

رفيقه إذا احتمى زجّ أو قبيعة، ونديمه إذا احتبى حكمة أو شريعة، فكم في ديار الهند له من وقائع أنطقت الحديد، وأخرست الوليد، وسكرت البثوق، وفجرت العروق.

وغادرت بيض الرباع في فحمة الليل، وخضبت الجربى عن ثميلة الكحيل. وكم في نوادي الفضل له من محاسن تلثم أطرافها الكلم، وتعشق أوصافها الأمم، وتسجد لأعقابها الحكم، ويأوي إلى برد ظلالها الكرم. وقد غنيت بذوب العقول عن صفو الشمول، وبحلو المقال عن كعب الغزال، وبغرر البراهين عن نزه الرياحين، فالخليل على ذكره محشور، وكأن سيبويه من طيب نشره منشور، وأئمة الهدى عليه عكوف، وملائك العرش حوله صفوف، فمن صحيفة للذكر منشورة، ومن أخرى بأقلام العدل مسطورة، لا لغو فيها ولا تأثيم إلا قيلا صوابا، وحديثا كخالص التبر مذابا. نفس عليه الدهر مكانه إن الدهر غيور، وعلى عقائل الزمان جسور، فصرعه كيادا للنظار، وأضجعه عنادا للأحرار، شاغلا عن الجود يمينه، وعن السجود جبينه، وعن الذكر لسانه، وعن الغزو سيفه وسنانه.

حتى إذا كاد يطمع في انتعاشه واستمكانه، وقد وزن على معيار الفداء بأضعاف جثمانه، فجعه بروحه الطاهرة، ونفسه التي لم تغذ إلا لنعيم الآخرة، فسخا عن العمر أنضر ما كان غصن شباب، وأنطقه فصل خطاب، وأكرمه عود نضار، وأحفظه حق ذمار، وأوثقه بالدنيا دار قرار، فكم هنالك من ستور مهتوكة، ودموع مسفوكة، وجيوب مشقوقة، ورؤوس محلوقة، وصدور مكلومة، وخدود بنعال السّبت ملطومة(١): [الوافر]

(١) في العمدة ٢/٦ وزهر الآداب١/ ٤٠٥ والشريشي الكبير١/١٨٩: لِ "عبد الله بن الزبير الأسدي". ونُسبا في معجم الشعراء ١٧٧: لفضالة بن شريك.وسمدن: قمن متحيرات، (لسان العرب: سمد).

رَمَى الْحِدْثَانُ نِسْوَةَ آلِ نصر   بِمِقْدَارٍ سَمَدْنَ لَهُ سُمُودَا
فَرَدَّ شُعُورَهُنَّ السُّودَ بِيضَا   وَرَدَّ وُجُوهَهُنَّ الْبِيضَ سُودَا

حتى إذا نشر رداء الردى عليه، وقرّبت حمولة البلى إليه، تنازعته أكتاف الرجال، كما تنازعته من قبل ظماء الآمال، فكأن الشمس غبرى من حثو التراب، والأرض غرقى من دموع المصاب، والآذان موقورة من رفع العقائر، والأبصار مخطوفة من نقض الغدائر.

وقد غدت الوجوه مسفورة للنظار، والجموع محشورة للاعتبار، والعيون بين جموم تجري سواقيه، وجمود لا تندى مآقيه. وودّت زهر النجوم لو صادفن ليلا فدعون ويلا، وتناوحن على المصاب خيلا فخيلا، وأما الليل فقد أحسن فيه من قال، وإن ركب الارتجال:

لقد بكت الليالي في دجاها   لموت القرم مصباح الأنام
فأشخاص النجوم الزهر مما   تجسّم من مدامعها السجام

ويظل هجّيري كل ثاكل سائر وصائر إلى موقف الوداع حائر:

من كان مسرورًا بموت أميرنا   فليأت نسوته بوجه نهار
يجد النساء حواسرًا يندبنه   بالصبح قبل تبلّج الأسحار
يخمشن حرّ وجوههن على فتى   عفّ الشمائل طيب الأخبار
قد كن يخبأن الوجوه تسترا   فاليوم جئن برزن للنظّار

ها إنا لله وإنا إليه راجعون من شعوب، تركت القلوب شعوبا، وأوسعت الأكباد ثقوبا، وكظمت النفوس كروبا، وسفحت العيون غروبا، ونضحت الوجوه قطوبا، ونثرت قناء الأصلاب أنبوبا فأنبوبا. وسار شخص العلى إلى فرضة البلى فريدا وحيدا، لم يغن عنه جوده، ولم تجد عليه جنوده، ولم تقاتل عنه فيوله، ولم يناضل دونه مرده وكهوله، خلا أنه فاح ذكاء مآثره، كما فاح كباء مجامره، ووهت على عرشه الرقاب، كما وهت حين أثلها النعم الرغاب:

فليس نسيم المسك ريّا حنوطه   ولكنه ذاك الثناء المخلّف
وليس صرير النعش ما تسمعونه   ولكنه أصلاب قوم تقصف

obeikandl.com

أيا ويل العفاة من بعده ما حالهم، وما فعلت بهم آمالهم! لقد انقصم محالهم، وانقطع دون هاتيك الموات حقهم ومحالهم، كأني بهم غادين على سدة كانت بالأبواع تلتزم، وبالأفواه تستلم، وبعثير ركبانها يتمسك، وبخدمة أركانها يتنسك. قد أقفرت فلا باب ولا بوّاب، ولا حجاب ولا حجّاب، يسألون أين الأمير؟! وما فعل السرير؟! وأين الحاجب والوزير؟! وأين المنادم والسمير؟! وما هذه الوحشة المستطارة، والغبرة المثارة؟! والظلمة الساجية، والغمة الشاجية؟! يقولون: ركب الأمير يزور أباه، ويحيّي بالسلام محيّاه، ويقضي نذر الاعتكاف على ثراه، ويعتذر من هجرة طال عليها مداه، أفمن يركب للسلام تخذل أبوابه، ويعدم بوّابه، ويعزل حجابه، ويوحش منتابه؟! ها إنه الركوب. فمتى المعاد؟! يقولون: ميعاده والله المعاد. ألم تروا عروشه بالأمس مهدودة، وغروسه مخضودة، وجياده مهلوبة، وسروجه مقلوبة، وأياماه مفجوعة، وأيدي يتاماه فوق الهام موضوعة؟! هنالك نادوا ثبورا، وعلموا أنه الحق مقدورا.

وعقدوا دون حامّة البيت مناحة، وندبوا عين الورى أدبا وفصاحة، وكرما وسماحة، وأفعالا كما أسفر الصّريم، وأبرز كفه الكليم، مغداه ومراحه. يعتبون على الحجّاب، وقد غدوا في بيض الثياب، أينزع السواد، وقد كذب الحداد؟! الآن أحوج ما كنتم إليه نزعتموه. هلّا خالفتم الرسم للوجوب، ولبستم لبسة المنكوب، ووقفتم وقفة الحجّاب للسيد المحجوب؟!

يا قوم ليس بياض الثوب زينتكم ... وقد فجعتم بمولى كله كرم
ردوا عليكم جميعا فضل لبستكم ... إن الحداد على المفقود ملتزم

فطفقوا يتناشدون بينهم عتبا على الزمان، وندبة للفضل والإحسان:

يا دهر دونك ما فعلت فقد غدا ... بك كل ما يخشى الرجال سليما
من ذا الذي يرجو وفاءك بعدما ... غادرت نصرا في التراب رميما
من كان أعذب شيمة وسجية ... وألذّ مكرمة وأطيب خيما
و من العجائب والعجائب جمة ... أن لا تلام وقد غدوت مليما
يا دهر مالك طول وقتك ترتعي ... روض المعالي بارضا وجميما
يا دهر مالك والكرام أولي النهى ... ماذا يضرك لو تركت كريما

لئن سرّ الأمير أباه بلقياه، وشفى لوعة غلته وصداه، لقد ساء أخاه، بأن عدم مثواه، وافتقد مصبحه وممساه، ووكل من بعده إلى نواهس الأرض، ولواحس التراب قراه. لكنه ما يصنع وسيف القضاء أحدّ؟! وحكم السماء حتم لا يرد.

[من الطويل[1]:]

ومن قبله ما قد أصيب نبينا ... أبو القاسم النور المبين بقاسم
وخبّر قيس بالجلية في ابنه ... فلم يتغير وجه قيس بن عاصم
وقال علي في التعازي لأشعث ... وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى عزاء وحسبة ... فتؤجر أم تسلو سلوّ البهائم

لا درّ درّ الموت من وقاح، وقرن كفاح، ما أنشب نابه إلا افترس، ولا ألحج مخلبه إلا انتهس. سواء عليه الملك المحجّب، والسلطان المغلّب، والفقير المستضعف، والسوقة المتنصف.

ألا تعس هذا الموت كيف ارتقى إلى ... حمى قصره العالي المنيع الجوانب
فمرّ على تلك القنابل والقنا ... وجاز على تلك القواضي القواضب
عجبت له والموت ليس بمعجب ... وفيه إذا فكرت كل العجائب
لعمري لقد جرّاه حين غزا على ... نهاب النفوس واغتيال الكتائب
وفهّمه فتح الحصون وإنها ... سوامي المراقي ساميات المراتب
وبصّره بالفتك في غزواته ... ورمي الرزايا وافتراض المضارب
فكّر عليه شدة الليث وانتحى ... كطوف فحول السوء حول القرائب

ومن عجيب الأمور في حكم المقدور أن اخترم الماضي - برّد الله حفرته، ونوّر غرّته- حتف أنفه، على خطاره بنفسه في قحم الحتوف، واعتراضه للشهادة بين الأسنة والسيوف، كخالد بن الوليد حين وفّي أجله، إذ قال: ثاورت الحروب منذ عقلت، فما في بدني مغرز إبرة إلا وفيه حزّ ضربة، أو وخز طعنة.

وها أنا أموت ميتة الحمار، إن الحكم إلا لله الواحد القهار. أو كلاما شبيها به. أما إن خالدا لم يدر أن سيف الله لا يقتل بالسيف، وكذلك القتل يرنو إلى موت الشباب من

---

(١) الأبيات لأبي تمام، انظر: الديوان ١/٢٨٠، ونهاية الأرب ٥/٢١٣.

خصاص الحيف وأن الله تعالى لما جعله أكرم النفوس مناقب، قيّض له أحمد الأمور عواقب، وقد فرغ ابن الرومي من هذا المعنى فجوّد، وبيّض وجه البرهان بما سوّد:

إن لم يكن ظفر الهيجاء منيته ... فأكرم النبت يذوي غير مختضد
أما ترى الغرس لا تذوي كرائمه ... إلا على سوقها في سالف الأبد
لميتة السيف قوم يشرفون بها ... ليسوا من المجد في غاياتها البعد
عزّ الحياة وعزّ الموت ما اجتمعا ... أسنى وأبنى لبيت العزّ ذي العمد
موت السلامة للإنسان نعلمه ... وإنما القتلة الشنعاء للأسد
لم يعمل السيف ظلما في ضرائبه ... فلم يسلّط عليه سيف ذي قود

ولعمري إن الرزيّة به- قدّس الله روحه- لقاطرة الغموم، مشاطرة بين الرجال على العموم، غير أن القاضي أبا العلاء وسائر شيعته، والشاربين من زلال شريعته، أوفر من الأحزان أقساطا، وأشد على مرود الأشجان ارتباطا، فقد كان- عرّف الله تعالى تربته- لهم ظلا ممدودا، وشربا مورودا، وكهفا مقصودا، ولواء على نصرة الدين معقودا. ولو لا أن الله تعالى سدّ ثلمة المصاب، وخلّة الاكتئاب بملك الشرق، وسيد الغرب، وحجة الله في الأرض، سلطان الزمان، يمين الدولة وأمين الملة- أطال الله بقاءه، وحفظ على الدين والدنيا بهاءه وسناءه، ففي بقائه عوض من كل شاجب، وخلف من كل غائب أو عازب- لاتّسع القول في عظم هذا النعي، وفقد ذلك الشهاب المضيّ، والنقاب الألمعيّ، غير أن النعمة- بحمد الله- فيما بقي ضافية اللباس، نامية الغراس، ناضرة الأكناف، حافلة الأخلاف، فلا زال فضل الله عليه عظيما، وصنعه لديه جسيما، ولطفه كريما، ولا خلف عنه الزمان يتيما، وألهمه الله فيما عراه راجحة الصبر، وعرّفه فيما غزاه فاتحة النصر، ولقّاه ملء الوهم مواهب تخرط الدنيا في سلك ملكه، وتقرّرها بحق الوجوب في قبضة ملكه، ورحم الله ذلك الأمير العديم النظير، والجليل الفقيد المثل والبديل، رحمة تبرّد ضريحه، وتقدّس روحه وريحه، وعرف له مساعيه في الذبّ عن دين الله، والسعي في سبيل الله، والفرض من ماله لأولياء الله. وعوّض الله المشايخ السادة عمّا دهاهم فأوهاهم ثوابا يحفظ عليهم دينهم، ويثقل في موقف العدل موازينهم، وجعلنا من المستعدّين ليوم الدين، إن حكم الله يقري الجفلى، والخلق فيها شرع، والآخر للأول تبع، والحمد لله على كل حال، والصلاة على نبيه محمد وآله خير آل.

ذكر ما انتهى إليه أمري بعد بلوغ هذا المكان من شرح أحوال السلطان يمين الدولة وأمين الملة من قصد الوزير شمس الكفاة واقتضائه حقي الخدمة والموالاة

قد سبق في أول الكتاب ما سلف لي إلى الأمير ناصر الدين سبكتكين- أنار الله برهانه- من خدمة، وتمهّد عنده من إلّ وذمة، وغرست أثناء ذلك في التقرب إلى الوزير شمس الكفاة، والتكفل بما رآه، والتجرد لما أرضاه، ما رجوت على الأيام إيراق شجره، وإيناق نوره وثمره، بعد أن صادفت من آثار رعايته ما لم يكن يليق إلا بهمّته، وما نشأ من كريمة المجد في ضمان ذمته، فرأى عند وصولي إليه، وعرضي موضوع الكتاب ومجموعه عليه، أن يسمني بالتقليد، ويسيّرني إلى كنج رستاق على البريد، وعليها فرعون بون أبو الحسن البغوي الغوي. شيخ ظاهره نور، وباطنه ديجور، ومنظره متن السيف، ومخبره ردّ الزيف، وأوله مشور العاسل، وآخره قرون السنابل، فافتتح موفدي عليه باستهانة لم تناسب حشمة الآمر، ولا حرمة الأقلام والمحابر، يوهم من جانب أنه مبعوث، ومن آخر أن الحقد موروث. وقد كذب إن الزعاق من منبع الشّريب محال، ووراثة محبّات الأولاد حلال، وما علمنا أن موالاة الأبناء معاداة الآباء، وأن والدا يكاشح ولده، ويطوي على الداء الدفين معتقده، حتى يباغض من وافقه أو عاهده، وضرب على وجوب عقد الموالاة يده.

وسامني خيانة الدين بمواطأته على كبائر تغلق الرقاب، وتوجب في عواقبها العقاب، حتى إذا علم أن مثلي لا يقرّ على الباطل، ولا يرضى باستيكال مال اليتامى والأرامل، رام أن يغرقني في دردور، ويتيهني في تيهور، فاحتال واكتال، وحرش عليّ الأمراء الأشبال. وأبى الله- لعلمه بعباده- إلا أن يحيق به مكيدته، ويكشف عن إقواء الزور وإيطاء الغرور قصيدته.

ولما آيس مما رامه، وأبلس دون ما جرّد له اهتمامه واعتزامه، عرّج على استنزال شمس الكفاة بسحر التمويه، وعرض صورتي عليه في معرض التشويه، موهما إياه أن لي صغوا في بعض من ناظره يوما على رتبة المقابلة، أو وازنه بمعيار الموازاة والمماثلة، علما منه بأن حلمه لا يستخف إلا بهذا التأويل، وأن رأيه لا يستنزل إلا على مثل هذا التخييل، حتى نفذت فيه رقيته، وعملت في استنزاله دخنته؛ فتشرّب حقدا ولا

الأرض من صوب العهاد، والكف من وشم السواد، والثوب من لون الجساد، أو صبغ الفرصاد.

وعلم الله أني لم أكن لأضمر كدرا على صفاء، أو أسرّ حسوا في ارتغاء، أو أستجيز غمصا لصنيعة، أو طما على عين شريعة. غيري من نكب عن نهج الوفاء، وغبّب دون فرض النعماء، وودّع حق المنعم المثيب، وردّ الحجر على قرارة القليب.

ونزعني عما قلدنيه بفدم من أهل جرجان لا يعرف الرشد من الغي، ولا الظل من الفيء، ولا النشر من الطي، ولا النقد من اللي، ولا الإثبات من النفي، ولا جرجان من الريّ.

شوهة بوهة قد صيغ من طول القناة، وزرقة البزاة، وليقة الدواة، وصفاقة الصفاة، وتجدير الصحف بالعشرات. طالما خرّ على العثنون تشمما للتراب، وتكففا للعصا في الجراب، وتصرفا على المكس بالصروف، وتهجيا للألف بنقطتين من بين الحروف.

وطفق من بعد يرتضخ لكنة عجمية في شعر كشعره الموصوف بوثارة الصوف، مستميحا كل صرّاف وإسكاف وعطّار وبيطار على سعر صفقته الأولى إذ السلعة قائمة، والجلّة رائمة، والسبخة ممطورة، والنخلة مأبورة. وغبر زمانا على هذه الجملة في الوتاحة والوقاحة. ثم انتجع خراسان ببضاعته المزجاة، فوافقت على النظرة الخرقاء قبولا، ولبست من عزّ العطاء غرة وحجولا. فلما تعقّبها التأمل، علم أن خرق الانتقاد ضيّع المال، وأورث الوبال؛ فأهمل مخذولا، وغودر في قذر شعره مرذولا، إلى أن غرّ شمس الكفاة عن نفسه فاختاره عليّ، ونفذ معه مكيدة البغوي الغوي فيّ، فقصدت من المكروه في الروح، دون سائر الممنوح، بما لو لا مكان الأمير الأجلّ أبي سعيد مسعود بن يمين الدولة وأمين الملة وفضل إحسانه، واستنقاذه إياي من فجوات أشداقهما بأحد غلمانه، لتراقى الخطب إلى ما يعزّ تلافيه، ولغلق رهن الحياة بما فيه. ولو كنت علمت من سيرة البغوي قبل ما عرفته بعد لاستعفيت من جواره، واحترست من مساقط أحجاره، لكن السرائر بيد الله لا يكشفها إلا الاختبار[1]: [الكامل]

---

(١) البيت للمتنبي وقبله:
لاَ يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنْ الاذَى... حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ
وافترق الناس في هذا الباب على ثلاثة مذاهب:

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِفَّـــةٍ فَلِعِلَّـــةٍ لاَ يَظْلِـــمُ !

وقد كتبت إلى جماعة الأفاضل في ذكر المذكور وشكواه، وتقرير سجاياه، ما هذه نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

لجماعة أرباب الصناعة، وعصابة أعلام الإصابة، من مبادىء الإشراق إلى أقاصي العراق، من محمد بن عبد الجبار المعروف بأبي نصر العتبي، رسالة تخص كل باد وحاضر موجود، وتعمّ كل لاحق مولود، ما سمع للحق أذان، وأطلق على الكفر عنان، وشيم في سبيل الله حسام، وأقيم على كتاب الله نقط وإعجام. سلام عليكم ما راق شارق مهضوب، وأراق بارق سكوب، ودرّ على الإبساس حلوب، وكرّ في حومة البأس قارح يعبوب. سلاما تميد على نفحات السحر قضبانه، وتنم على فتات المسك والعنبر أردانه.

أما بعد:

فإن لله- تعالى جدّه- بإزاء نعمه التي يتبلّج للسارين صباحها، ويتبرّج للناظرين وشاحها، معدلة القدود، مورّدة الخدود، مضفّرة القرون، منؤورة الشؤون، مغلفة العوارض، مدبجة المعارض، مخضبة الأطراف، معطرة الأردان والأعطاف، منّا منه على عباده ابتداء يقتضيه حكم كرمه، أو ابتلاء لآثارهم في جنب نعمه، نقما قائدها شؤم الخذلان، وسائقها لؤم الكنود والكفران. تخالط أبناءها مشوّهة المطالع، منفّشة القنازع، مروّقة المكاشر، مقلّصة المشافر، مغوّلة المعاري والمحاسر. تصرفهم بين أخلاق مذمومة، وأخطار مثلومة، وأعراض مكلومة، وأفعال بعاجل العار وآجل النار مختومة،

=

١ - فقال قوم: الناس مطبوعون على الخير، والشر مكتسب ٢ - وقال آخرون: بل هم مطبوعون على الشر، والخير مكتسب.

٣ - وقال آخرون: بل بعضهم مطبوع على الخير، وبعضهم مطبوع على الشر.

وهذا موضع يضيق مجال القول فيه؛ لأنه يفضي إلى الكلام في القضاء والقدر، ولذلك قال المعري: (إذا علمي الأشياء جَرَّ مضرة)، وقد روي في بعض الحديث: (أَبْهِمُوا ما أَبْهَمَ الله).

وفي حديث آخر: " إذا ذُكِر القضاء، فأمسكوا ".

انظر: شرح المختار من اللزوميات ١/١٥٤، والسحر الحلال ١/١٠٤، والخزانة ١/١٩٣.

وقد تستحيل النعم بأعيانها نقما منكورة، كما تستحيل المحن على أربابها منحا مشكورة.

تطبعا على خلق المكان، وترعرعا على عادة المقصود بالإحسان، كالجيب يعطر من نوافج الندود المعطرة، والجو يذفر من روائح الحشوش المقيرة. والمزن يسقط على عرصة الروض فيوليه طهارة ونضارة، ويهبط على فروة الكلب فيعديه نجاسة وقذارة، والماء القراح يسقي عروق الشجر؛ فيقضي عليها باختلاف الثمر؛ يقبله كل منها على ما كتب له من مرارة وحلاوة، ومزازة وحرافة، وكثافة ولطافة. يسقى بماء واحد، ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾ [الرعد:٤] قدرة من البديء الأول، والأبدي الموجود في الأزل.

وإن شر خلق الله نفسا وشيمة، وأخبثهم قدرا وقيمة، من يضيفه صنع الله ريّان من ماء الطلاقة، نشوان من صهباء اللباقة، فينان من غلل السجاحة، ميسان في حلل الراحة، حتى إذا حطّ رحله، وخالط بالبشر الخصيب أهله، قراه من بؤس الخصال، وعبوس الملال، وضرة الاستبدال، ومضرة الابتذال، ما يطير واقعه، ويهيج وادعه، وينشز به ودوده، ويعقر عليه ولوده؛ فيرحل في سواد الحداد، شاكيا سوء الجوار، وخفرة الذمار، وذلة المقدار، وغلظة الأحماء والأصهار، ثانيا على ثنية الوداع صليفه، متمثلا بقول الشاعر[1]:

نعم الله لا تُعَابُ ولكن ... ربما استُقْبِحَتْ عَلَى أَقوامِ
لا يليق الغنى بوجه أبي يعلى ... ولا نور بهجة الإسلام
وسخ الثوب والعمامة والبر ... ذون والوجه والقفا والغلام

ولولا أن العقاب تبع للخطاب، وأن التأمّر على الأعراض مجهول في حكم الاعتبار ونصّ الكتاب، وأن مجاز الشعراء غير حقائق الكتّاب، لادّعيت غضب الله على نعمه حين ابتلاها بمجاورة الأنذال، وزواها عن مظان الاستحقاق من كرام الرجال، غير أن المقصود فيها بالكرامة وقد قابلها بالاستخفاف، وكابر عقله في جوارها بغير الإنصاف، أولى بأن يقهره عاجل الغضب، ويصهره آجل اللهب، فكم من وارد ماء

(١) انظر: أخلاق الوزيرين ٦٢/١، ورسائل الثعالبي ٨٩/١.

أشرقه نميره. وقادح زند أحرقه سعيره، وشاحذ حد قطع به وريده، وراكب جواد قصم عليه جيده. وقد تختلف مواقع النعم من أربابها على شينها من صارت إليه، ونيلها ممن مالت بسوء اختياره وقبح آثاره عليه، فالأحداث فيها أحسن حالا، وأزين خصالا، من الكهول الطاعنين في الأسنان، والشيوخ الحالبين أشطر الزمان، فليس من قرح وحنك، وسبر وسبك، وأخذ على وجه الاستبصار أو ترك، كالغرّ لم تلفحه هواجر الأمور، والغمر لم تردعه زواجر الدهور، والغفل لم تدربه الحادثات بأحوالها، والمهر لم ترضه الرجال بأكفالها. وقد يتعذر النازي في طول الجهالة بالشباب الذي هو طليعة الحياة، وشريعة الشهوات واللذات. وأن سائس العقل لم يضرب عليه عقاله، وصيقل التجريب لم يحكم عن متنيه صقاله. وأن الرأي برعومة لا يفتقها إلا كرّ الجديدين ببدر يدور، وشمس تطلع ثم تغور، وموسم زمان يتفتق فيه النّور والنور. وأن الشباب شعبة من الجنون. وأن قلم التكليف مرفوع عن المجون، والحدث الغرّ كالعجماء جرحها جبار، وعجمتها دون جنايتها اعتذار، فما بال من خلع لباس الحداثة، ووضع جلباب الطراءة، واجتلى نهار المشيب عيانا، وأفنى ثلاث عمائم ألوانا[1]: [الكامل]

سـوداء داجيـة وسـحق مفـوف وأجـد لونـا بعـد ذاك هجانـا

وحان له أن يصحو عن قهوة البطالة، وينزل عن صهوة الاستطالة، ويبكي لضحك المشيب برأسه، ونصول الأنقاس عن قرطاسه، وتمشّي الوهي في عظامه، وقعود القوى به عند قيامه، وإصباحه على خمار ندمه، وافتضاحه بعثار قدمه، ونداء برهان الله عليه باتساع محجته، وانقطاع حجته، وإتلاع النار أعناقها لا لتقاطه، واختطافه هاويا عن سراطه. يستجيز العمى عن سبيل الله، والصمم دون أمر الله، خبطا في ليل الخبال، وحطبا في حبل الضلال، ورجوعا في حافرة الخسار، وولوعا بفاجرة الآثار، وخلاء في شطن العتوّ والغلو، وإباء إلا على النفس الأمّارة بالسوء، فلا درّ درّ الشيب مشوبا بدنس الجيب، ولا نوّرت أقاحي القذال إلا على مكارم الأفعال:

فـأقبح مـا اجـتلاه الطـرف يومـا ضـياء الشـيب فـي حلـك الخصـال

نعوذ بالله من غضب الرحمن، وختمة العمر بطابع الخذلان، وتعريضه المشيب لما يهتك من أستاره، ويكشف من أسراره، ويمحق من نوّاره، ويحرق من نوره بناره،

(١) انظر: التذكرة الحمدونية ١٦٢/٢، وديوان المعاني ٢١٧/١.

وعصم أقمار الكرام وأحرار الأنام عن مصرع الغوي أبي الحسن البغوي دلّة الاحتيال، وسلة الافتعال، وجراب المخاريق، وجرداب التخاليط، وعقرب التضريب، ويلمع الأكاذيب، وشبه التدليس، وزئبق التمويه، ومرآة القريب، ومقراض المغيب، وآفة الجود، وخرافة الموعود، وحرباء الإلحاد، وكيمياء العناد، ويربوع النفاق، ويعسوب الشقاق، وضبة العقوق، وفأرة الفسوق، وثعلب الخداع، وخنزير القصاع، وكلب الهنات، وأسود الخبث، وأسد الترات، وحرضة الأنذال، وفرضة الخبال، وسكين الأرحام، ويبرين الدم الحرام. ولعل بعض من يتصفح هذه الألفاظ منسوقة، والأسجاع مجموعة ومفروقة، يظن بها ركوب البهت في حلبة الاقتدار، وعصيان القصد في طاعة الإهجار، إدلالا بنضناض البلاغة، وإعمالا لمقراض السفاهة بالفصاحة، وحذوا على غرار الشعراء في استعمال المجاز، وإغفال التحفظ والاحتراز، وإنكارا لاتقاء هذه المساوىء السود في شخص قد شري على تصاريف الزمان وجرب، وأكل على طعمي أحواله وشرب، ولم يعلم أن الله جل جلاله إذا خذل عبدا ممن شاء من عباده لم يبق منه إلا حمأ مسنونا، وجلدا على أخلاط الفساد معطونا. وعلى شك خاصرة الشك عن واضحة اليقين بالإفصاح عما أبهم، والإصباح على ما أظلم، تحذيرا لغفلة الأنام، وتيسيرا لشاكلة الاستعصام، وتنبيها على مزلة الاغترار بظواهر النعم، والانخداع لزواهر الأحاظي والقسم. فكم من صفيح يروق العيون نوره، ويروع النفوس مشهوره، قد قطف عناقيد رؤوس، وأراق أباريق عروق، وفرّ المنايا عن عصل من الأنياب روق. ومن شهاب كما خطّ بالإبريز كاتب، أو حلّ عن معقود اللواء راكب، يستوقف الأبصار ضياء ممدودا، وبهاء بأفق السماء معقودا. قد رمّد من طار بطواره، وهمّد من رام التحيز في جواره، وكذلك الدفلى يغرّ الناظر مجرّده، ويفترّ عن عقيق الورد زبرجده، ثم هو الداء المجلوب لمن خبر، والسم المقشوب لمن فكر واعتبر. ولو لا أن قصد الشريعة أن تسمح بخيرها على العموم، وتكافىء بين الكافّة في فضلها المعلوم، إباحة للكتابة التي هي قيد العلوم، وصيد الحكم المبثوثة في الرقوم، لقلت: لله درّ ساسة العجم، ورفعة أقدار الدواة والقلم، حين عنّسوها دون ذوي الاستحقاق، وخدّروها إلا عن الكرام العتاق.

لله درّ أنـو شـروان[1] مـن رجـل ... مـا كـان أعرفـه بالـدون والسّـفل
نهـاهم أن يمسّـوا بعـده قلمـا ... وأن يـذل بنـو الأحـرار بالعمـل

فما كان نحيزة لها كفاءة في مناكحة الآداب، وملاءة في متاجرة الكتاب. ولا كل مسك يصلح للمسك وعاء، ولا كل ذرور يصلح للعين جلاء. وأضيع شيء عقد في نحر خنزير، وحدّ بكف ضرير، وخطر بجنب قتير، ونقس على بنان فاجر شرّير. ها، إن المذكور معيدي الأحرار بخراسان دناءة همة، وقماءة قيمة، وخساسة مفعول، وخصاصة معقول. نشأ في بيت الفضل والنعمة، ونما على فرش اللين والنعمة؛ فرف عليه نعيم النّشب، وعبق به نسيم الأدب؛ فأصبح مخيلا لصوب الصواب في أفعاله، جديرا بحكم الانتجاب في أمثاله، يظن به وبعض الظن إثم.

إن الفرع إلى الأصل نازع، والغيث للغيم مضارع، ولا علم يقضي بأن النار تهفو عن رماد ماثل، والخمر تطفو على عكر سافل. حتى إذا أيفع وأينع، حملته نذالة الطباع، وخبأته السّنخ تحت يد الطبّاع، على عقوق أبيه، سعاية به إلى السلطان فيما يحويه، وابتياعا له بأملاكه وأملاك ذويه؛ فامتلك عليه قبل الاستحقاق ماله، وقصم محاله، وأحال حاله، وفجع به أمه وكانت عياله، وأحجره دون ما اقتناه على كبر سنه وضعف أساسه، واشتعال المشيب برأسه، ورسوب قذى العمر آخر كأسه، فطفق يمري الشؤون دموعا، ويقتضي أجل الكتاب مخمصة وجوعا. ويزجي مطايا الأسحار بين برد اليأس، وحر الأنفاس، بدعوات لم ترجع مجانيقها إلا بقاصمة الظهور، وحالقة الدين لا حالقة الشعور.

وعطف بعد على من طلعت عليه شمس والده، ورفّت عليه أغصان فوائده، فنجبهم نجب السّلم، وقرضهم قرض الجلم، وعركهم عرك الأدم، وقشرهم قشر القلم؛ فعادوا أعرى من الصخر معصورا، والسيف مشهورا، والغصن مخبوطا، والدجاج على السّفّود مربوطا. كل ذلك بين يديه، ونصب عينيه، حتى أضمرته الأرض نديما للزفرات، كظيما بالحسرات، غريقا في العبرات، شرقا بماء الحياة.

---

(١) المراد: كسرى أنو شروان ملك الفرس، والسفل بكسر السين جمع سفلة وهم أراذل الناس ولم ولم ينسب هذا البيت لأحد معين، وانفرد الرضي بذكره من بين كثير من كتب النحو.
انظر: شرح الرضى على الكافية ٦١/٢، والخزانة ٢٦٨/٣.

وعقد على مال خطته بكنج رستاق عقدا اشترى به أهلها، وأخذ يطيبهم بما يريهم من سداد السيرة، ورعاية حق الجيرة، ذريعة إلى استئكالهم واستئصالهم، دون حرائبهم وأموالهم. وسامح عدة من شيوخ تنائهم ببعض ما لزمهم، استمالة لهم على بؤساء معرورين، وضعفاء مضرورين. وسامهم بعد الاحتكام عليهم في التراضي بزعامته. والتواصي بطاعته، عقد الوثائق عليهم بتصحيح مال من ضمانه ينكسر، وجبران حق من عقده ينجبر، حتى إذا استتب له ما أراد، واستوفى عليهم الحق وزاد، وضع عليهم يد الاستصفاء بعلة حاصل وباق، وحائر وناق. فأخذ ما وجد من صامت وناطق، وصاهل وناهق، حتى إذا أرب كل من ذي يديه، وباد غير أطلال الضياع والرباع عليه، رام استنزالهم عنها طواعية وكراهية، فمن اهتبل منهم فرصة الخلاص على التظلم مما دهاه فأوهاه، وعراه فعرّاه، سبقه محضر العصبة القائمة بالإفك في خفارة التوفير، وكفّارة التزوير؛ فارتدّ على عقبيه خزيان قد سال به السيل، وأسوان طال به الويل، وناح عليه النهار والليل. فإما أن يزول على كرب وقلق، وإما أن يؤول على غيظ وحنق، حتى استخلص الضاحية والضامنة، واعتصر البادية والكامنة. وغادر الضياع حشين، وشرّد عنها الزرّاع عزين. وأخرس الثغاء والرغاء، وأنطق الهام والأصداء. وطمّ المنابع والمشارع، وحمى المراعي والمراتع. فلو ملك عصافير الهواء، ويعافير البيداء، لاستكرهها على طعوم القوانص، وحقوق الملاجيء والمفاحص. قد شحا فاه للأطماع ولا مداخل الكهوف، ومفاتح الولائح الجوف[1]: [الرجز]

كـالحوت لا يُرويـه شـيءٌ يَلْهَمُـه يُصـبحُ ظمـآن وفـي البحـرِ فَمُـهْ

وما به التخريب لو لا اجتياح المالك بجوعه، واستحلال حرام الملك بريوعه، كأنما عقد على الدهر حلفا لا يخونه، واتخذ عنده عهدا يصونه، ويتحاماه من دونه منونه. وهيهات إنها مظالم حديدات الشفائر، ومغارم ثقيلات الغرائر، ومصائد طالما خنقت فخاخها، وضربت عليها (الشاه مات) رخاخها، ومطاعم ظاهرها الأري، وباطنها السم، وإن من الربيع ما يقتل حبطا أو يلم.

---

(١) من أرجوزة طويله للعجاج في مدح أبي العباس السفاح أول خلفاء العباسيين، وروايتها على طولها كانت سببا في حظوة الأصمعي عند هارون الرشيد.

انظر: شرح الرضى على الكافية ٢٦٩/٢، والخزانة ٤١١/٤، وجمهرة الأمثال ٧١/٢.

نعم، وأقام سوق الفسوق خاصة وعامة، وأباح حمى الفجور بطانة وحامّة، ملتزما سمة الشطارة، ومستمطرا بقية الحجارة، ومضاهيا تيوس المجوس في خبث الإلحاد، وصلة الأخوات والأولاد، بلاغا نمته ثقات خدمه، وأدّته على وجه الإكبار جيران حرمه. وربما أرادوا له في السر ملاما، وراموا من تحذيره حدود الله، وتخويفه عقاب الله مراما، فما يزيدهم على ظاهرتين عاهرتين كحدق الجراد مالها أجفان تواريها، ولا أهداب تقيها، تصلفا بركوب الآثام، وتكلفا لمحظور الحرام. وإنما أثبت لفظ التكلف قطعا على ما سمعته من بعض مشايخ الأدب، يحكي عمن سأل أبا حاتم السجستاني عن قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أبغض الأشياء إلى الله شيخ زان، وعائل متكبر، وفقير فخور». وزعم أن القياس يقتضي كون الشاب الشديد الفحلة، القوي المنة أبغض إليه من الشيخ المضعوف، والمعتصر المنزوف. فقال:

هو- بناء على قوله صلى الله عليه وسلم - أبغض الأشياء إلى الله التكلف. فأبغض الشيخ الزاني لأن فعله تكلف، وتقدمه استكراه للطبع وهو تخلف. كذلك هذا الخرف المتكلف، والشّره المتورّه. قد قضى شبيبته على اقتراف المحارم، واختراف المآثم، حتى إذا وضح القتير، ورزح المسير، وانحلّ المرير، وأفرغ ماءه الصبير، أبت عادة السوء أن ترخيه من عقالها، وتعريه عن سربالها، وتضحيه عن خصالها، وتريه إلا على شعب الأران يوم فصالها:

لا تتعـــود يـــا أخـــي عـــادة ... تحـــوي بهـــا ضـــربًا مـــن الشـــين
فعـــادة الســـوء إذا اســـتحكمت ... شـــر علـــى المـــرء مـــن الـــدين

هذا، ولم يرض بالعقوق الذي وسمه ووشمه، وسخّم وجهه وحمّمه، وردّاه بالخزي وعمّمه، حتى قطع على رؤوس الأشهاد رحمه، وقتل في الشائع المستفيض ولده وكان لحمه ودمه. فلو كان كأحد أولاد السوقة، في أخلاق لهم بين الجدّة والخلوقه، لكنه الخمر بماء العهاد، والزبد بذوب الشهاد، واللثم برشف الرضاب، والملك بشرخ الشباب، والأمن بطعم الوصال، والخلو بطيب الحلال، والعفو ببشرى النوال، والعيش بموت العذّال، وشمس الجنوب بروح الشمال. عشق الأدب قبل أن عقدت عليه تمائمه، وزبنته دون الاحتضان روائمه؛ فجاء كالقدح هدى أوله النصل المطار، وحدا أسفله الريش الظهار. وناهز عشرين من سنيه يرى الخليل في جنب فضله

خليلا، وسيبويه كليلا، وعبد الحميد رديدا، وابن العميد عميدا. إن خطّ فنقش العيد على أيدي الكواعب الغيد، وإن لفظ فعقود الرود منظومة، وأقاحي البطاح مرهومة. ولو لا أن أباه اعتبطه دون مداه، لخلّف من آثار بنانه، وخلّد من أنوار إبداعه وإحسانه، ما يفضح ماء الورد في تصعيده، وعصير الخمر من عناقيده. لكنه لم يغن إلا قدر ما لمحته العيون، حتى اختطفته المنون، فقامت نواعي المجد يندبنه جميعًا، ويبكينه نجيعًا:

فظللت من بينهم صريعا أنشدهم واله القلب وجيعا
قد كان لي في رأيه وذكائه أشراط صدق أن يموت سريعا

ولقد ضمني وإياه مجلس لبعض أركان الدولة اليمينية، فاتفقنا ثاني اثنين من بين الحضور في تنافث الهموم، وتذاكر العلوم، وتناشد أبيات الكرم واللؤم، فما كان إلا أن حمي المجلس بناره، وعقر الشرب بعقاره، حتى انحلّ عنه عقال اختياره، وانفتحت له أقفال أسراره، فغرّق في بحر الدموع عينه، وألقى إليّ ما دار بين أبيه وبينه، يقرر ما نشأ عليه من خدمة الأدب، والاستغناء بعصام النفس عن عظام النسب، على طاعة من ولد في حجره، والبروز على حكمي أمره وزجره. وإنه حين ملك أمره، وعرف من خلّه خمره، وانفرد بتدبير معاشه، وتوفير نعمته ورياشه، ناهض بأمله معونة أبيه ببعض ما يستحقه بررة الأبناء على الآباء، فلم يزده على أن زاحمه في إرثه عن أمه، وحال بينه وبين ما كتب الله له من حقه، مطاوعة لرقيق اعتقده، فذاق عسيلته، وأذاقه ذبيلته؛ فحلّاه عنهما تدبير دانيته وقاصيته، وولّاه ترتيب حاشيته وغاشيته، وحكّمه في عرض ولده، وسائر ما تحت يده؛ فأحجر ذلك الفاضل دون نعمته، وأقعده دون الاستمتاع بلحمته، وجعل كل من يعتزي إليه منقوما ومقدوعا، ومن يعتريه ملطوما ومصفوعا، حتى اضطره صراح اليأس، وإلحاح الإفلاس إلى قصد الوزير شمس الكفاة لاستماحته، وانتجاع ندى راحته.

فحين علم أبوه المعتوه تخييمه على شاطىء الإقبال، واستقلاله على مواطىء الآمال، ندب الفكر لاغتياله، وأسهر الليل لاقتناصه بإحدى حبائله وحباله، فدسّ إليه- على ما شاع وذاع، وشحن المسامع والبقاع- من ذعف له نقيعا، غادره على فراش المنون صريعا. وانتقل غير بعيد إلى جوار الله ودار كرامته، مشبّكا يديه فوق هامته،

ومستصرخا ولي العدل ومالك الخلق على ظلامته، ومختصما حول العرش إلى يوم قيامته.

وحدّث عن قهرمان بيته وقد عاد إلى أبيه السفيه بما كان استفضله عن رواتب نفقاته، واقتطعه دون عوارض حاجاته، استظهارا به على حوادث النّوب، واستنفاقا على معالي الرتب، أنه وآخر من رفقائه أنفقا من جملة المال قدر ما قطعا به المسافة إليه، ووضعاه في أكياسه بختومها بين يديه، فكان جزاؤهما منه أن وضع الدّهق عليهما، حتى استغرق ملكيهما، وانتزف صليب العظام من جنبيهما. ثم قصدهما في روحيهما، إشفاقا على صورة الحال، ومستورة المآل من هتكة الإذاعة، وفضحة الكشف والإشاعة، لو لا أنه اعتصم بالاستتار دون صاحبه، مرعدا بما تحاماه، ومبرقا باستبراز ما واراه، ولم يرض بالإرث وقد حازه دون مستحقيه من قرابته وذويه، حتى قطع سياط المطالبة على وكلائه ومواليه، وهلمّ جرا إلى شقيقة له معجّزة في الحجاب، معنّسة دون الخطّاب، خلافا على الله في حكمه، واجتراء عليه في فرض الإسلام وحتمه، واستحقاقا لولغ الألسن في دينه المجروح، وعرضه المفضوح، وعقده المحلول، وسرّه المعجون بالغلول؛ فعرّاهم ذكرانا وإناثا عما لبسوه من بال وجديد، وطارف وتليد. اعتلالا عليهم ببقايا أخرجة للمتوفى على ضياعه، وهي تحت استغلاله وفي ضمان مزارعيه وعمّاله.

ولم يستبق من جملة الداخلين كانوا عليه رحمه الله لتسليمة، غير موسوم بجريمة، ومكلوم بهضيمة، ومنفوض عن ذخيرة وكريمة، ومغلوب على ما حواه من تيعة أو تيمة، فزارته المقصورة المهجورة تشكو إليه بلابلها خضوعا، وتمري عليه مكاحلها دموعا، ضيقا بما دهاها من إضاقة، وأفدحها على مسّ التسبيب من فاقة، وتسأله سؤال المضطر أن يملك عليها ما ملكته إرثا، ويحوي ما حوته عتقا وحدثا.

مصانعة له دون ما أطلقه عليها من أيدي الجنود، وأخياف الترك والهنود. فهرّ في وجهها ضجرا بما تشوفته من نظره، وقلقا لما خصفته عليها من ورق الصيانة عن شجره.

وجعل يرميها في جواب التلطف والتألف بأحدّ من مؤللة القراع، وأشدّ من ململمة القلاع، فعل من لا تكفّه حرمة، ولا تكنفه رحمة، ولا ترفّ عليه رأفة، ولا تخفّ إليه في

ذات الله مخافة، ولا يثنيه عن وجوه الناس حياء في درة تذال، وعورة تنالها الأيدي الطوال.

فلما آيسها الإعراض، أدركها الامتعاض. وآلت حلفة مصبورة لئن لم ينته عما لم يقصد بمثله والد ذات خدر، وكريمة وراء ستر، لتهتكنّ الحجاب، ولتطرحنّ الجلباب، ولتحثين على قرونها التراب، منطلقة إلى حضرة السلطان في إيضاح ما وارته الجدر منه، وطرحته المجاملة عنه، وكتمته ضمائر الإشفاق فيه، وطمسته ذيول الهوادة دونه. فقال المجنون لأخيه، وهو معه في ناديه: اغلق على هذه القحبة الورهاء، فقد أبطرتها الفضول، وأنطقتها دالة الاحتمال فما تدري ما تقول. هذه والله حمية الأبطال في حماية الذّمار، ورعاية حقوق الحرم الأبكار. ورحم الله أبا الفتح البستي حيث يقول[1]: [مجزوء الرمل]

لـــي جـــار فيـــه حيـــرة عرســـــه تلعـــــن أيـــــره
خلـــــق الله إلـــــه النـــــا س للغيـــــرة غيـــــره

ولما فرغ هذا الفاضل من هلاك ولده، ووراثة ما كان تحت يده. واعتصار المظلومة عن بلالة حالها، وعلالة مالها، ندب أخاها لصلبه، وهو عجزة أولاده، ومن يرجوه مثله لمعاشه ومعاده، للتقبل بمعاملات ناحيته احتيالا عليه في إلحاقه بأخيه، واقتطاعه دون كفاف يتصرف فيه. فتلطف واعتذر، واعترف بالعجز ما قدر، حتى إذا أعياه التلطف، ولم يقنعه إلا التصرف، مدّ رقبته لربقة التقليد، وكبّر سبعا على طارف الملك والتليد. وما زال يجبي كل ولود ونزور، ويمري كل بكيء وثرور، حتى نضب المال إلا قليلا، وعصب ريقه إلا بليلا. وطفق يعيّره بعجزه وتضجيعه، ويبكّته على خرقه وتضييعه. وأمر فجمع عليه ما لم يثبته سمع ولا بصر، ولم ينبته نجم ولا شجر، ولم تطلع عليه شمس ولا قمر. وسبّب عليه لأعلاج الهنود، وغلاط كفّارهم السود مالا أو هى متن طاقته، وأتى من وراء فاقته. وحرّشهم عليه بتطميع في عاجل موزون، وترغيب في آجل مضمون، حتى أوهنوه شدا وإيثاقا، وأثخنوه ضربا وإرهاقا، ووضعوا عليه في بعض لياليه دهقا استمر به إلى الصباح النائر. حتى إذا لم يبق منه غير ناقر الطائر، علموا أنه مظلوم، وأن الأنحاء عليه في دينهم المدخول، وشركهم المخذول قزم ولؤم؛ فنفضوا

(١) انظر: يتيمة الدهر ٣٧٦/٤.

أيديهم عنه، لا عنين أباه ومن أرضعه وربّاه، وأطعمه بعد الله وسقاه. وما ظنّ الأفاضل الكرام بمن يوفي رحمة الكافر الفاجر على قساوته، وطبع قلبه وغشاوته؟! وبمن يزعم أنه والد يحنو على ولده، ويعتده فلذة من كبده، وبضعة من روحه وجسده؟! كل ذلك طمعا في استزادة مال، واستضافة حال، قصاراها إلى تمحق وزوال. فلا رحم الله كل جافي العقيدة، خافي المكيدة، قاسي الفؤاد، حاسي دماء الأولاد. إن للآباء فروضا على الأبناء. وللأبناء حقوقا على الآباء، فإن يكن من فرض الوالد أن لا يقتصّ منه على قتل ولده، وقطع بيده يده، فمن حق الولد أن يطاع الله في صلة رحمه، وتقوى الإقدام على روحه ودمه.

نعم، ولما أن خفّ عن البائس كربه، وانجلى عنه وصبه، أسرى إلى جانب الأمير أرسلان الجاذب فتى السلطان يمين الدولة وأمين الملة في زحفة السهم المارق، والرجم المقذوف على المارد السارق، متقيا به عارض البأس، ومستبقيا روحا معلقة بخيط اليأس؛ فآواه وقبله، ونشر عليه جناحه رحمة له. وكتب إلى أركان الدولة في بابه بما أطلّ عليه سعاية أبيه، وغلّ دونه نكاية قصده وتجنيه. وحاذر الفاسق المارق افتضاحه بآخر ولده كما افتضح بمن قبله، أروى الله صداه، وقبّح أباه. فلم يزل يلقاه بشعوذة المخاريق، وبرقشة التزاويق، حتى أقرضه مالا سدّ به منخر بأسه، وردّ معه عدوى امتعاضه وشماسه، كابن المقفع حين أقرض السجّان، واستوجب الأمن والأمان. فلو نقّب عن منافس فتوقه، ومنافخ جلده وعروقه، لا نتضحت حيلا تعجز كل صبّاغ وصوّاغ، وثعلب بين الوحوش روّاغ.

ومازال هذا المذكور، يختلف به السرج والكور، إلى أن قدم شمس الكفاة وزير السلطان يمين الدولة وأمين الملة مرو الروذ مستوفيا على العمال بقايا الارتفاعات والأموال سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، فجنح إليه لائذا بكنفه، وعائذا بواقية الكرام وراقية الأنام من شرفه، ومقررا حاله في الظلم الذي ضرّسه بجريره، ومعسه معس الملحاح غارب بعيره، وموطئا لسانه فراش التقية طاعة لله تعالى في لزوم الاحترام، وصيانة للعرض من وشوم المذام. إلى أن حشرت مطالبة العمال أباه على مثواه، من باب ولي نعمته ومولاه، فكم ضرع إليه فما نفع، وخشع فما نجع، وتلطف فما أقصر، واستعطف فما سمع ولا أبصر. حتى إذا عارضه الرد بحجابه، وكلّمه اليأس من وراء نقابه، باح

على شمس الكفاة ببعض تلك المخاريق، وصبّ له جرعا من أكواب تلك الأباريق، وأشعره أن صنيعته لم تنجم منه إلا جاحدا لأياديه، مخافتا بمساوئه، مواليا لأعاديه، مخالفا لكريمة الحفاظ في مواليه، ببراهين كما سطع الصباح السافر، أو متع النهار الجاشر، مقرطة بصحائح الأقوال، مشنفة بفضائح الأفعال. فلو لا كرم غذي بلبانه، وعجن على مسكه وبانه، لرجمه رجم العفريت، وضربه بالنفط والكبريت، لكنه رأى أن يضم عليه طرفي بساطه، ويستبقي مختوم سره بين خرزه ورباطه. تقديما لشفاعة المشيب، وتفويضا إلى ما ورائه من الأجل القريب، وإقناعا لمن سمع أو نظر، وروى وأخبر، بما تتناهبه الآفاق من ذكر شيخ معائبه أحداث، ولؤمه مكتسب، وفضله ميراث.

ولما تسامع أهل عمله بما ركد من ريحه، وظهر من رغوة صريحه، تبادروا إلى مفصل الظلامات صارخين، كما نقنق في الجوّ بنات الأعداد، وجهور في الشّعب حجيج البلاد. واختلفوا في المظالم، فمن قائل هتكت حرمته، وآخر انتهكت نعمته، وثالث انتهبت ثلّته، ورابع طلقت عليه طلّته، وخامس قتل على التعصب أخوه وأبوه، وسادس جدرت على المعروف بشرته وفضّ فوه. فمنهم من وصل فسعد بالإنصاف، ومنهم من حذر فشقي على يأس الانصراف.

ورأى شمس الكفاة أن يسلك به شعب المجاملة، فطمّ بصرفه على نبائث مساوئه، وصدّ عن مسامع السلطان خبائث أفعاله ودواهيه، وأصمّ صدى التظلم عن شريف ناديه. فعاد المذكور وراءه مخذولا مفلولا، وأراد الله أن يقضي فيه أمرا كان مفعولا.

ولما رأى أن قد ضجت عليه أفعاله، وضحكت منه حيله وأدغاله، وأن الألسن قد مضغته حين أطاع عبدا مملوكا في معصية خالقه، ووصل شهوة الفجور في قطيعة ولده، وعمّر أطلال ضياعه بخراب آخرته، وثب به وثوب الثائر الموتور، والجائش المسعور، يرتجع ما حلاه على الفسوق، ووفاه من ثمن الاستلذاذ بسلعة تلك السوق. ويرى أن صنيعه ذلك يحميه سمة الألامة، ويقيه نبال الألسنة الذامة. فاستردّ ما نحله من صداق، ورجع عليه بقيمة ما أشربه من مجاجة أشداق، وعرّاه عما أعطاه بعد أن عرّاه فامتطاه، وبطحه للسياط بعد أن أضجعه لوطء اللواط، مبتذلا منه جردة طالما امتصها بثغريه، وكنسها بعارضيه، وفداها بنفسه وأبويه، ودفن عليها أحد ولديه. هذا والله الجود لا ما نبىء عن حاتم العرب، وروي عن سادات بني عبد المطلب. فلحا الله من رضي بها

لنفسه سيرة، وخبأها على تناسخ الأحقاب كنزا وذخيرة. إنه- وذات الأستار ببطن مكة - لأرذل من والغ في جيفة مقلوب، وأنذل من طامع في شريطة مصلوب. إن كان ما أتاه انتقاما فهلّا ذاك والولد حيّ؟! وفي اليد من ملك الخيار شيء؟! آلآن وقد سبق السيف العذل؟! وقد فعل القضاء ما فعل؟! أوردا وقد نضب الماء؟! وشيما وقد أصحت السماء؟! وغبرة وقد سقط الجدار؟! وسترة وقد ظهر الشّوار؟! هيهات هيهات لظن حائل، ورأي فائل، وظل زائل، وردّ ماء سائل[1]: [المنسرح]

أيتهـــا الـــنفس اجملـــي جزعًـــا إن الـــذي تحـــذرين قـــد وقعـــا

واحتال مفترش لذته ومعتصر شهوته للانقطاع إلى بعض كبراء الأمراء، فقبله وآواه، وانتزعه من قبضة مولاه، مراغمة كوته بنار أضغانه، وشوته على حرارة غمومه وأشجانه. فلا حميم ولا قريب، ولا ولي ولا حبيب، ولا والد ولا مولود، ولا عابد ولا معبود. فأما الشرع وطريقه، والدين وتحقيقه، فحيّهلا به. إن في وضوح هذه الخلال- على شوه أحكامها، وسفه أحلامها- لغنية دون شرح الحال وتشريحها، وتبليغ لسان المقال وتفصيحها، غير أن التقرب إلى الرسول المصطفى الأبطحي المجتبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم بقوله: «اذكروا الفاسق بما فيه يقتضي التنبيه على مخازيه» تلخيصا لخفايا نكره وخباياه، وتشكيلا لأضلاع خبثه وزواياه.

ليعلم الأفاضل أني جاورته على البريد قريبا من سنتين، فلا والله إن تصبّغت الأحداق به في المسجد الجامع للفرض إلا يوما واحدا، كبيضة العقر، أو كقضة البكر،

---

(١) البيت لأوس بن حجر من قصيدة قالها في فضالة بن كلدة يمدحه بها في حياته ويرثيه بعد وفاته.

أوس بن حَجَر: (٩٥ - ٢ ق. هـ / ٥٣٠ - ٦٢٠ م): وهو أوس بن حجر بن مالك التميمي أبو شريح. شاعر تميم في الجاهلية، أو من كبار شعرائها، أبوه حجر هو زوج أم زهير بن أبي سلمى، كان كثير الأسفار، وأكثر إقامته عند عمرو بن هند في الحيرة. عمّر طويلاً ولم يدرك الإسلام. في شعره حكمة ورقة، وكانت تميم تقدمه على سائر الشعراء العرب. وكان غزلاً مغرماً بالنساء.

انظر: الديوان (٥٣/١) الخصائص (١١٢/٢) والمخصص (٢٦٣/١) وتاج العروس (١٦٨/٢٢) ومقاييس اللغة (٢١٢/٥) ومفتاح العلوم (٨١/١) والإيضاح (٥١/١) ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص (١٢٨/١) ونهاية الأرب (٦٩/٦) والهوامل والشوامل سؤالات أبي حيان التوحيد لأبي علي مسكويه (٢٢٧/١) وشعراء النصرانية (٤٩٢/١) ونظام الغريب (٢٩/١).

فما أدري أخطأت به خطاه، أم ألجأه عذر تخوف عقباه! وتجاذبنا حديث الصلاة، فقال ممازحا- وما صدقك إلا ممازح أو سكران-: قام بعضهم وهو يسعى يوم الجمعة للفرض، وقد نودي للصلاة، فقال له صاحبه: مكانك إن أربعة من خير البيوت لخير من اثنين من عمل السوق. وقد كان من طريق التجوّز مساغ للتأويل على وجه التملّح.

ولكن من هذا قيله، وترك العبادات سبيله: فلا عيد يعتاد، ولا فرض كما يقضيه العباد، محال به غير اليقين بالإلحاد، وتلقي أوامر الشرع بالعناد، وأظن قول الغلام الواصف مولاه أنه ليعرب في الشتم ويلحن في الإعراب، ويصلي من قعود وينيك من قيام، ينحى إلى صورة حاله، ويأوي إلى مقصورة خبثه وضلاله، فجلّ أحواله عيوب، ومعظم أفعاله ذنوب:

يصلي فيخفض أركانه ... ويشهي فينصب سيقانه
يخاطب بالكاف إخوانه ... ويشتم بالزاي غلمانه
ويكفت للشر أكمامه ... ويسحب للإثم أردانه

ومن نادرة البلد اعتقاده الاعتزال على وعيد الأبد، ثم لا يبقي محظورا أو محجورا، ولا يستبقي عملا موزورا، ومنكرا من القول وزورا. ها هو طمع بمشهدي في مال رجل كان انقطع إليه منذ زمان بأمان، فأغرى به ربيبا له كقضيب من الآس مياس، بعلة فتكه كانت بأمه إذ هو رضيع، وعلى جدالة العجز صريع. ولقّنه استعداء الأمير الأجل أبي سعيد مسعود بن محمود عليه، وتنجّز الأمر في معنى الانتصاف إليه. فتنبّه ذلك الأمير الألمعي، والسيد اللوذعي على غامض كيده، وباطن ختله في صيده. فأمر بالكتاب إليّ في تعرف الحال، وتجنب جانب الاحتيال، والانتداب لإعداء الشاكي على خصمه، وإيفائه حكم الله في أمه. فلما أحس أخو دلة المحتالة أن حدسه قد فال، وظنه استحال، وسعيه إلى الثبور قد مال، منع شهود الزور أن يصدعوا بالحق فيما بذلوا من خطوطهم ترغيبا وترهيبا، فمرّضوا القول، وادّعوا على مسألتهم العول، ومال المزوّر والمزوّر إلى التوسط عن أرش المستباح دمها على مائتي درهم قيمتها خمسة دنانير. فلم أدر أية نحلة وقفت بأن ديات الأمهات على هذين العقدين، فما في الإسلام له ذكر معلوم، ولا في الفقه باب مرقوم، ولا عند أهل الكتاب أمر محتوم، ولا في ديار أهل الشرك رسم مرسوم، ولا في فطر النفوس أن تنزل عن أمهاتها مقتولة بهذا الوكس،

والثمن البخس، ولا الخنانيص أو القرود لو نطقت ترضى عن واضعاتها بمثله. وكم قد قلت وأقول: إنها ليست دية تودية أو ودّية، بل هي دية نسمة مسلمة قد حقن الله دمها إلا بإحدى ثلاث، نصا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين.

فهل يستجيز الترخص في هذه الأحكام إلا مستخفّ بدين الإسلام؟! أما إن المحكوم عليه لم يلتزمها إلا بقرة قومت مائة وعشرة. فقال له المفجوع المخدوع: تا الله لا رضيت بهذا الغبن، ولا شربت الدم الحرام باللبن. وهمّ بالرحيل في أمر القتيل، فاغتيل.

فلم يدر أأكلته النار، أم شربه الماء؟! والتقطته الأرض أم اختطفته السماء؟! لله هما من دمين ذهبا هدرا، وشخصين فقدا غيلة وسخرا. هذا والله الدين السليم، والعقد الحكيم، والأمر القويم، والسمت المستقيم، والمبالاة بما وراءه الجحيم.

ومما يزيده- أدام الله عز المشايخ- فضوحا، ويفيد من هذه المقدمات وضوحا، ما كانت الأخبار تتشاهد به من استحلاله عند الإشفاق من لواحق جناياته على سلطان زمانه، ورعايا عمله وسكانه، حبس ما نسب إليه من ضياع وعقار، وباغ ودار، ليتناهب ذكره الأسماع، ويتقاصر دونه الأطماع، حتى إذا ما خلا جوّه، واستقام على إيقاع المراد شدوه، ندم على ما فعل، ورجع فيما بذل، وفصّل بالفسخ كل ما أجمل. فكان هذا البلاغ يقرب تارة من الإمكان ويبعد أخرى، حتى أغنى شخص العيان عن الخبر، ونابت شمس البيان عن القمر. وذلك حين بعث السلطان يمين الدولة وأمين الملة قاضي قضاته أبا محمد عبد الله بن محمد الناصحي إلى ديار خراسان، لتدارك أمور الأوقاف، وانتزاع ما اقتسمته أيدي التسلط والاختطاف، فرفع إليه خليفته وأنا حاضر، وإلى حقائق ما يرد أو يصدر ناظر، ما تقرر عنده من احتجانه ما يقارب مائة ألف دينار عن أوقاف وضع عليها سمة التملّك، وسومة التغلّب والتحجّن، كاعما فيها أفواه أربابها دون التظلم بوعد دونه رقراق السراب، ووعيد عنده فراق الرقاب، حتى درج عليها قرن بعد قرن آيسين عن الانتصاف، وخلف من بعدهم خلف قانعين من دونه بالكفاف.

فأوحى إليه بإنعام الاستقصاء على حكم أمانة القضاء، فقام فيه وقعد، وأبرق وأرعد، وانتزع مالا عظيما من تحت أضراسه، وحذّره الافتضاح إن تعرّض لمراسه.

وكان قصاراه أن سكن وسكت، وخشي أسوة أمثاله العنت. وأحضر الرجل طواغيت الشهود، وعفاريت الفسوق والمرود. وعقد بمشهدهم وعلى شهاداتهم وثائق بوقفه كل ما ملك، وإطلاقه على وجه الله جميع ما أمسك. يري بما فعل أن التسمح بما تحت يده من قليل أو كثير، وزهيد وغفير، براء عن الطمع في مال لغيره موقوف، وعرض إلى وجوه القربات مصروف. فلم يتراخ الأمد على هذا العقد الوثيق، والخذلان المشبه بالتوفيق، حتى قال لي وهو يشكو الوزير شمس الكفاة، وسماعه أباطيل السعاة: ما هو إلا أن أحلّ عقود أملاكي هذه على طفرة إلى العراق، ساليا عن خراسان وأهلها، وقاليا قرارة الميلاد، ومباءة الطارف والتلاد منها. فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون من شيخ هذه تقيّته، وما لفظ به على وجه الاستحلال، وغيظ العجز عن أملاك الرجال بقيّته.

هذا، ومن فضل سماحته، وإساحة فيض راحته، أن كل من ساكنه في حلّته على عمل يليه، أو مال يجبيه، كاله ما شاء جزافا، ووزنه تبذيرا وإسرافا، استحقاقا لشهاداتهم له بجوده، وتخرّقه حذو الكرام بموجوده، حتى إذا قضى الوطر منهم، وملك بسطة الاستغناء عنهم، تتبع عليهم صبابات القدور، وخلالات الثغور، وقمامات الأطراف، وصواحات الأصواف. وجعل المطعوم في زنة الذهب المصون، والمشروب في قيمة الجوهر المخزون، والدرهم الواحد قنطارا، وحديثا في دواوين الشرق مطارا، سعاية من خسّت أرومته، ورست على دمنة اللؤم جرثومته؛ فيصدر عنه العامل والمجاور والآمل مغبونا مدة مقامه، موضوعا في شرابه وطعامه، مفجوعا بما اقتناه غابر أيامه، مخدوعا عن شهادة ختمت صحيفة آثامه، قد خصف فرجيه بكلتا يديه، يباري في عدوه السّليك، وينادي لبيك اللهم لبيك.

وليست هذه من آثاره بأعجب من كمون أخباره، وسدول الأستار دون أسراره، وقصور يد الانتقام عن معقد أزراره، غير أن لكل شيء أمدا، ويأبى الله أن يفلح الظالم أبدا، إلا أن المال يغزر الماء، ويحقن الدماء، ويجمع الأهواء، ويدفع القضاء، ويستر العوار والعوراء. ولقد بالغ أبو الفتح البستي في النصح حيث يقول[1]: [السريع]

اشفق على الدرهم والعين تسلم من العينة والدّين

(١) انظر: يتيمة الدهر ٣٨٢/٤، ومعاهد التنصيص ٣٣٧/١.

فقـــــوة العـــــين بإنســـــانها وقـــــوة الإنســـــان بـــــالعين

غير أن المال متى سلب الجمال، وأورث القيل والقال، فهو وبال. ولا الدين مطلوبا، والذنب مكتوبا، والأنف مجدوعا، والبنان مقطوعا. فقبّح الله الأعراض متى دنست الأعراض، والأموال متى لطّخت السربال، والأملاك متى أعرت الأوراك، والحرائب متى أبدت المعائب.

فأما موائده ومطاعمه فخذوها مني إليكم بإسناد، كما انفتحت الأصابع، واتسقت الكعوب الفوارع. إنه يغدو مع صفير العصافير على أطعمة يرتو عليها حشاه كما حشا الدقيق جرابا، وأثقل الرصاص كعابا، فما هو إلا أن يذرّ ورس الشمس على صلايات الجدران، حتى كأن أولاد البقر تلحس فؤاده، وكأن الظليم يدّعي فيه ميلاده، فيتغدى بالفول سنّة وعادة، وبما يجانسه من عمل السوق شهوة وإرادة، حتى إذا طفح كالدلو لمن متح، كفّ وقبض الكف على قرم لا يطير داجنه، ولا تنثني دون الجذب محاجنه. فإذا انتصف النهار أو كاد، والتحف الحرباء الإلحاد، دعا بطعام اليوم وهو المتكلف، وما يقيم رسمه التصلف، فاحتشى من كل حلو وحامض، وامتلأ من كل بكر وفارض، حتى يخشى عليه في الصّفاق من الانشقاق، وفي العروق من البثوق، فيظل باقي النهار يشكو أمعاء معاوية، وخلاء خابية خاوية. حتى إذا جنحت الشمس للأصيل، وهمّ الليل على الطفل بالتطفيل أعيد عليه الطبائخ والغروف، وحشر إليه القراطف والقروف. ثم يؤتى لمبيته بلفائف كالأضابير مطوية، والطوامير مختومة محشية، وربما تعارّ بعض ساعات الليل فينادي بالجوع، ويلاقي الطهاة بالقنوع، فيحاش عليه عجالة الوقت من مستودعات البساتيق، ومطجّنات الطيور والغرانيق، فيتهجّد عليها من غير قيام، ويتسحّر منها لغير صيام، طعاما لا يشركه فيه غير الملائك حاضرة، والكواكب من محاجر الظلماء ناظرة. فما الأرض وهي الغاية في الالتقام والالتهام، ولا الدعص وهو النهاية في الاشتفاف والارتشاف بأبلع منه لو لا فناء زاده، ولا بأجرع لو لا قضاء نفاده.

ومن نادر أمره في المعاقرة أنه يكتتب ضمنا في التنقل من الصّبوح إلى الغبوق، والتردد بين الفجور والفسوق. فإن نشط للتنزّه تبوء مقاعد الأكتاف، كما تعود مقاعد الأحقاف، فيهادي بين اثنين، حرضا في جلدة شيطان، وجيفة في صورة أفعوان، قد نجم بينها تنوّخ الفحل للرماك، بل صنيع الداهيتين بالضحّاك. وربما بقي في التمارض سنة أو

أكثر شفقا من تكلّف الخدمة لولي النعمة، وتجشّم المسير إلى باب الوزير. فيرشو على التعالل مالا، ويحلو وجوه الأطباء وأصحاب الإنهاء فرها خفافا، وبدرا ثقالا.

وليس هذا الاحتيال بأغرب من اكتتابه الزّمانة على امتناع الطباع، وشموس النفوس دون الإصغاء إليها، فضلا عن القرار عليها. فسبحان من خلق النفوس أطوارا، وجعل من الهمم أنجادا وأغوارا.

هذه من أعيان مساوىء هذا الفاضل العاطل، ولو سردت أمثالها لطال الكلام، وعال الإبرام، ووراءها من دقائق الظلم المذموم، والدغل المكتوم، وثقل الحيزوم، والذل المبلول بلعاب اللؤم ما يربي على دقائق الأبراج وأجزاء جواهر الأمشاج، والصغائر على الإصرار كبائر، كما أن زغب الشعور على الأيام غدائر. ولقد أحسن ابن المعتز حيث يقول[1]: [مجزوء الكامل]

خلّ الذنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التقى

لا تحقرنّ صغيرة ... إن الجبال من الحصى

ومما اقتضى التنبيه على معاير المذكور ومعايبه، والفلي عن شمط عقائصه وذوائبه، مقابلته صنائع لي عنده أيام آل سامان وبعدها، في حق قضيته، وعهد رعيته، وعيب طويته، وسر أخفيته، وشغل كفيته، وبرّ أوليته، بأن كاشفني لمودة جمعتني وولده المعتبط أبا المظفر- رحمة الله عليه- بعداوة لم يرج لعظيم سيلها صفاء، ولا لبهيم ليلها انقضاء. وذلك أن شمس الكفاة ندبني لمحاورته، وتقمّن لي خيرا بمعاشرته، مكافأة على خدمتي دولة السلطان يمين الدولة وأمين الملة ب (اليميني) في شرح أخباره، ومدح مقاماته في عدته وأنصاره، فما زال يسري إليه عني بنميمة كقطار ديمة، ووقيعة كسراب بقيعة، على غفلتي دون ما ينصبه لي من شرك، ويهيجه من معترك، تمويها له أني لحقّه كافر، وعن فرض محبته نافر، وإلى مرموق بعين الكفاءة في استحقاق صدر الوزارة مائل، وفي شعب الاختصاص به والانقطاع اليه سائل، أكذوبة لم يخلق الله لها رأسا ولا ذنبا، ولم يضرب لها ودّا ولا طنبا. ودمنة لم يهتد دمنة لنسور حوافرها، ومصفوف كلاها وأباهرها، حتى هاجه عليّ كالليث موتورا، والنمر محرجا ومضرورا،

(١) لابن المعتز، وهما في ديوانه ١/٤٥.

فكم كدحت حتى استنزلته عن حران وشماس، وجهدت حتى نجوت منه رأسا برأس، وطفقت أنشد وقد فارقته سالمًا(١): [الطويل]

إِذا نَحْـــنُ أُبْنــا ســالِمِينَ بــأَنْفُسٍ كِـرَامٍ رَجَـتْ أَمْـراً فخـاب رَجَاؤُهـا
فأَنْفُسُـــنا خَبْـــرُ الغَنِيمـــةِ إِنَّهـــا تَـــؤُوبُ وفيهـــا ماؤُهـــا وحَيَاؤُهـــا

وأغرى بي بدر الملك ابن شمسه يمين الدولة وأمين الملة في عظيمة، لولا أن ألهمه الله الأناة، وأشعره الحصاة؛ فنقّر ونقّب، واستشف أعطاف البلاغ فعل من جرّب ودرب، لثارت علي منه داهية لا تبقي ولا تذر، ولا ستطارت عباقية يفنى عليها الشعر والبشر، فمنّ الله تعالى بأن فضح الفاضح فيما زوّره، وكسف وجهه وكوّره، وأهواه فيما حفره، وخنقه بقوى ما ضفره، وسخّم وجهه بنؤور الافتعال، وكشف عورته لفحول الرجال، وجعله عبرة للغابرين بشرح هذه الأحوال، فمن قرأ هذه الفصول، فليحمد الله عليّ السلامة من مثلها، والبراءة من فوادح الأوزار، وقوادح النار بها، وليعلم أن الإساءة تعقب على مرور الأيام عبأ ثقيلا، وغبّا وبيلا، وخطبا جليلا، ولسانا كالحسام صقيلا. وقبّح الله من نقص عمره على زيادة الآثام، ومساءة الأنام، وحيازة الملام، ويرحم الله عبدا قال: آمينا.

(١) انظر: الشعر والشعراء ١/١٩٣، والكامل في اللغة ٢/٢٢، ولباب الآداب ١/١٥٩.